موسى النقيدان

مسافات



28.10.2012



في

ذاكرة رجل من بريدة





موسى النقيدان

مسافات

في

ذاكرة رجل من بريدة



مسافات

في

ذاكرة رجل من بريدة

الكتاب: **مسافات في ذاكرة رجل من بريدة**

المؤلف: **موسى النقيدان**

التصنيف: **التاريخ السياسي والاجتماعي**

الناشر: **دار مدارك للنشر**

الطبعة الأولى: فبراير (شباط) 2012

الرقم الدولي المتسلسل للكتاب: ISBN 978-614-429-028-6



www.mdrek.com - read@mdrek.com

دبي:

مجمع إعمار للأعمال، شارع الشيخ زايد، دبي - الإمارات العربية المتحدة

P. O. Box: 333577 Dubai - UAE

Tel.: 00971 4 361 5177 - Fax: 00971 4 361 5178

بيروت:

فرن الشباك، الطريق العام، سنتر غاريوس، بيروت - لبنان

P. O. Box: 50074 Forn Elchebbak - Lebanon

Tel.: 00961 1 282075 - Fax: 00961 1 282074

المحتوى



تقديم

التاريخ يُكتب غالباً عن حياة الحكام والدول، ولايهتم كثيرًا بحياة الشعوب، وغالبًا ماتوكل هذه المهمة للقُصَّاص الشعبيين، وهؤلاء يكتفون بسرد الحدث بوجهٍ عام، دون توقف عند المنعطفات التاريخيّة المهمة، التي ترسم خريطة طريق نتوصل من خلالها إلى دراسة أي مجتمع، وكيف تأثر من خلال تلك المنعطفات المهمة وكيف تشكل، حتى وصل إلى لحظته الراهنة.

هذا الكتاب المتواضع هو تجربة ومحاولة جديدة لرسم المنعطفات التاريخية الحرجة، التي مرّت على مجتمع مدينة بريدة، عاصمة منطقة القصيم. كتبتُها على شكل حلقات، منها ماهو تاريخي قديم، وماهو ذكرياتنا الجميلة التي مررنا بها منذ السبعينات الهجرية/الخمسينات الميلادية من القرن المنصرم حتى الآن، والهدف توفيرها لأي باحث يحاول دراسة هذا المجتمع القصيمي الذي يعيش في قلب الصحراء.

لا يوجد عندي دافع آخر إلى نشر هذه المقالات، ولا أعتقد أنّ شخصاً مثلي قد يكون متحمسًا لنشر أي شئ، في هذا الوقت الذي تداخلت فيه المفاهيم واختلطت، واشتبكت بشراسة، حتى صرنا في حالة من العماء، لاندري فيها أين الطريق الصحيح الذي يمكننا سلوكه.

أبويوسف أخي منصور، هو من شجعني وصار مهتمًا أكثر مني، حتى إنه قام بالمهمة كاملة، وتركني مستلقيًا على رملتي المسائية، أتأمل في غروب الشمس كعادتي القديمة، وعند نهاية الغروب أحمل أغراضي وذكرياتي التي أحتفظ بها، ثم أعود، على أمل في غروب جديد.

أتمنى أن تجد أيها القاريء في هذه الحلقات مايستحق الاهتمام.

موسى النقيدان
بريدة
15 **فبراير** 2012





إعلام السيسان...

وإعلام الكراث في بريدة

السيسان للرجال، والكراث للنساء.

كنت أجلس مساءً قبل يومين على حافة الطعس، وقبل غياب الشمس، كان الجو صافياً وهادئاً وبلا غبار كما اعتدنا عليه هذه السنة والسنة التي قبلها ..

ذهب بي تفكيري إلى منظر بريدة القديمة وحياتها التي تعيشها، كان ذلك قبل «الطفرة» المالية والخطط الخماسية الكريهة التي قضت على كل شيء جميل وبسرعة فائقة، حتى أصبحت بريدة بثلاثة عقود مضت غير بريدة التي نعيشها الآن، تغير شكلها، وتغيرت طريقتها وأصبحت غريبة لانعرفها الآن ..

أجمل شكل لبريدة كنت أتذكره وأتلذذ في التفكير فيه فترة الثمانينات، ومنتصف التسعينات، بعد العام 1395هـ/1974م، تغير كل شيء وبدأ معول الهدم والتغيير ينخر بها، ويبعثر معالمها القديمة،

ويهتك حرمة عاداتها وحركتها، لن أنسى «السيسان» وهي نواصي الطرقات أو «عتبات» الدكاكين التي يجلس عندها أولئك العاطلون عن العمل، إما لكونهم كبار سن أو لأنهم فرغوا من أعمالهم في الصباح الباكر، في تلك السيسان ينشر ويذاع كل شيء حتى الأخبار السرية فإنها مباحة، يكبر الخبر ويضاف عليه ويحذف منه حتى يكون ملائماً ويستحق النشر، ويصبح جذاباً يتناوله الجميع بكل حماسة ويصبح الخبر أو الحكاية إطاراً لتمضية الوقت بأسرع مايمكن، والساس موقع ضروري ومحطة للتزود بالمعلومات الطازجة، التي يحتاجها أصحاب «القيل والقال» وهم ينقلونها إلى المجالس الأخرى، أو إلى نسائهم بعدما يزيدون عليها أو يغيرون شكلها ومعالمها حتى تصبح جديرة بالاهتمام.

في تلك السيسان يكون الخبر أداة «للشد والجذب» والمنازعات «والطلاقات» عندما يحاصر الشخص الذي ينقل الخبر ثم يبدأ بالانزعاج والحماس ويحاول أن يثبت مصداقيته أمام الجالسين فإنه لابد من «الطلاق بالثلاث» ما يعني أنه صادق.

وأحياناً تحتدم المعركة ويرتفع الصوت وتنفلت الكلمات الجارحة التي تؤدي إلى العنف والاشتباك بالأيدي ولكنها قليلة ولا تذكر. وتختلف الحكايات باختلاف نوعية الرجال المنصتين، ويختلف أيضاً أسلوب الحوار وطريقته لاشك في ذلك.

تبدأ مجالس الرجال أو «السيسان» من «الجردة» شرقاً، لأنها المركز الرئيس تقريباً والذي يجمع الجميع ..

في الوسط تباع الأغنام، وفي وسطها الشرقي تباع الإبل، وبين الأغنام والجمال تباع أشياء متعددة، وعلى حواف الجردة من الجهة الشرقية، يجلس نوع من الرجال (الهوامير) ورجال عقيل القدامى، يتذكرون ماضيهم ويسردون الحكايات القديمة ويتناولون الأخبار الطازجة، وفي الجهة الغربية منها أعني «الجردة» يجلس نوع آخر من الرجال يختلف عن الجالسين في الجهة الشرقية، إنهم مجموعة من البنائين، والمزارعين القدامى، والغرباء القادمين، وأنواع أخرى، أما البناءون فإنهم يجلسون ينتظرون رزقهم، وينتظرون من يأتي ويعدهم بعمل غداً. ولا بأس من تناول الحكايات والأخبار الجديدة، من الجهة الجنوبية الغربية يمتد سوق مسقوف صغير يجلس به التجار الكبار أمام حوانيتهم التي يباع فيها الهيل والقهوة والأرز ويوجد فيه أهل السيسان بكثرة ولكنهم من العيار الثقيل وأصحاب الأموال الغزيرة - من جهة الجنوب منه يمتد سوق مسقوف أيضاً يمتد غرباً مايزال باقياً إلى الآن تنتشر على جانبيه الحوانيت التي تبيع الملابس الرجالية وأنواعاً متعددة كثيرة من البضائع يسمى «المجلس» أو «القيصرية» على عتبات تلك الحوانيت تبدأ جلسة السيسان، كل صاحب حانوت يأتيه أصدقاؤه وأقاربه ومعارفه، ثم تدور الحكايات والأخبار الطازجة، ويا ويلك إن مررت بمحاذاتهم وخاصةً إذا كنت تختلف عنهم بملابسك أو لحيتك، أو كنت متعلماً تعليماً حديثاً وخاصةً إذا كنت من تلاميذ الثانوية أو من قوم «عكية» الشباب المتحرر، فإنه يبدأ ذبحك من الوريد

إلى الوريد وتحتدم المعركة ويرتفع الصوت «من هو ولد له ؟! ولماذا هو كذا مثل البنت ؟! مفرطاً من يد أبوه ؟! مايصلي الفجر ؟! يشرب الدخان ؟! أبوه أجودي ولكن هو الله يهديه»

وهكذا حتى تمضي الساعات ويدخل أذان المغرب ...

أما النساء فهناك ندوة الكراث الشهيرة بين نساء الحارة، وتبدأ أحياناً في وقت الضحى، بعد نهاية أعمال المنزل، من كنس وخض اللبن وغسل الأواني، وأحياناً بعد العصر عندما يتم طهو الطعام وقبل أن ينضج بقليل حيث تترك المرأة ابنتها تراقبه ثم تذهب إلى المنتدى.

يجلسن حول الكراث المنثور على السفرة وبجانبه إناء فيه ملح، ثم عند مشاهدته بهذا المنظر المغري تسيل العواطف، وينفتح الصدر «للقرق».

يبدأ المنتدى بأسرار البيوت والدخول بعمق، ويبدأ الهجاء والقذف والاتهام، وتصل الأمور إلى ذكر أسرارها الشخصية وفضح بيتها، وأسرار زوجها وتبدأ تكال الاتهامات والأكاذيب، وعندما يبدأ مفعول الكراث المغطس بالملح، أقول عندما يبدأ مفعوله بالدماغ، تختثر الحكاية، ويبدأ البكاء مرة والضحك العالي مرةً أخرى، وهات ياالسان حتى تأتي ساعة النهاية، وتشعر المرأة أن بطنها انتفخ ووصلت الأمور إلى نهايتها الحتمية التي يجب عندها التوقف، عندها فقط ينتهي المنتدى، الذي كشف أسراراً كثيرة وفتح ملفات مغلقة تحت تأثير المسكر الكراثي قوي المفعول الذي أدى إلى فضح المكبوت، والمتستر

عليه، والمسكوت عنه وهات يازمن، إنها أيام تجعل الشخص لايشعر بالفراغ والوحدة، وقد استطاعوا أن يقضوا على أوقات الفراغ المملة، واستطاعوا أن يستثمروا وقتهم الضائع، بأشياء مفيدة وغير مفيدة، هكذا كانت الأيام والأزمان الماضية في تلك المدينة المجنونة.



بريدة التي مضت

كل الدراسات والكتب التي صدرت عن تاريخ مدينة بريدة كلها تقريباً تنصبّ على التاريخ السياسي والجغرافي والاقتصادي لهذه المدينة، وكلها كتب تعتمد في النقل على بعضها، حتى صارت متشابهة، وكأنها كتاب واحد، ما عدا بعض الكتابات الشعبية التي تنقصها المقدرة على التحليل، والغوص في أعماق الحكايات والأشعار، دون أن تقدم لنا فلسفة تحليلية، وخاصة على آلية الحركة السكانية، أعني أنها كُتبت بطريقة عامة، دون الخوض والتحليل، وأنا أجد عذراً لهم، لأن التاريخ لابد أن يتطرق لأسماء و عائلات، ولابد أن يتطرق للإيجابيات والسلبيات، وهذه مشكلة نعانيها ليس عندنا فقط وإنما في كل الوطن العربي.

وأذكر بهذه المناسبة حادثتين وقعتا، واحدة في مسلسل «طاش ما طاش» عندما اعترضت إحدى القبائل على بعض الأحداث التي وقعت بالمسلسل والثانية بالأردن عندما قتل أحد زعماء القبائل بسبب الأحداث التي وقعت في مسلسل «نمر العدوان».

هذه مشكلة يعانيها كُتّاب التاريخ، ناهيك عن السلطة السياسية وعينها التي لا تغيب عن مراقبة ما يكتب، هذه مشكلة عربية شاملة لا تخص بلداً دون الآخر وهناك أيضاً الرقابة الدينية التي هي أشدها، لذلك نشاهد الكُتاب عندما يكتبون التاريخ العربي أو الإسلامي تخرج هذه الكتابات وكأنها مبتورة، وتترك في رأسك أسئلة كثيرة ترغب في طرحها على المؤلف.

أنا هنا سأتطرّق لمدينة بريدة بطريقة تختلف نهائياً عما كُتب عنها وسأعالج الموضوع بطريقة أخرى غير الطريقة المعتادة، فسأتكلم عن الذكريات فقط، دون التطرق إلى التاريخ، هرباً كالآخرين، وإن كنت أعرف الكثير والكثير.

سأتكلم عن تلك المدينة التي مضت ولم نعد نشاهدها إلا في مخيلتنا فقط، لقد مضت كالسراب وبطريقة سريعة، أسرع من البرق.

تلك البلدة البدوية الصغيرة القوية في عزيمتها، والتي خاضت التاريخ بكل ما يحمل في طياته، حاربت فانتصرت وهُزمت، زرعت فأكلت وجاعت، اشتغلت بالتجارة فكسبت وخسرت، دُمرت ونهضت من تحت الأنقاض، سُلبت وسلبت الآخرين، مرضت وشُفيت، وهاهي تمتد وتكبر كالأخطبوط، لا يمكن لأحد أن يقف في طريقها، ذكرياتي التي سأسردها لكم في عدة حلقات، هي ذكريات تحملها ستون سنة عشتها، وأنا الآن أحملها في قلبي، وكل ليلة صافية أستعرضها واحدةً واحدة مع القمر والنجوم، ولا أريد لأحدٍ أن يطّلع عليها غيري خوفاً

عليها من الضياع، ألتفت يمنة ويسرة وعندما أتأكد أن لا أحد هناك أخرجها من حرزها الذي يسكن بقلبي، وأستعرضها واحدةً تلو الأخرى أنا وصديقاتي النجوم، وعندما أنتهي منها ألفها جيداً وأعيدها إلى قلبي، وأرجو النجوم أن لا تذكرها لأحد أبداً كائناً من كان.

بريدة التي نراها الآن هي بريدة أخرى تختلف نهائياً عن تلك التي في قلبي، تختلف في شكلها وفي طرقاتها وفي لغتها وحركتها وسكنتها، إنها شيء آخر يختلف تماماً عما أعرفه عن بريدة التي أحملها، إن بريدة التي أحملها هي بريدة (فطّيمة ـ ولطيفة ـ ومزنة ـ وهيا ـ وعاشة) وليست روان ـ ومنال ـ وأريج ـ ولجين)..وغيرها، إن بريدة التي أحملها هي (عزيز.وسليم.ودحيم.وكريم.وبريه.وعبيد)، وليست .. (معاذ.ومهند.وأمجد.وعدنان.وصهيب، وراكان وغيرها)، هذه البريدة الجديدة جاءت إلينا من وراء البحار من الأراضي الدافئة، وأدخلها الدولار والعولمة التي غزت حتى الصحارى الجميلة التي تسبح مع الشمس في ظروف مناخية هادئة.

أنا لست عنصرياً، وإنما أعتبر جميع مدننا السعودية بنات جمل واحد، وليس لدي تمييز عنصري لمدينتي، ولكن اعذروني «أحبها ياناس» أحب هواءها وشمسها الفضية، أحب نكهتها التي تجعل جسمي يهتز طرباً لذكرها، إنني أعرفها وتعرفني أغضب منها أحياناً وتغضب مني، أختلف معها في مواقع كثيرة وتختلف معي هي أيضاً، ولكن الاختلاف لا يفسد للود قضية، أنا وهي من طينة واحدة، رضعت معي ورضعت معها، وكلانا نتصارع على الحل هي تريد أن تختلف وتسبق

أخواتها، وأنا أرغب أن تبقى في مكانها، هي تريد أن تتكلم لغة أخرى وأنا أريدها عشيقتي كما ولدت أول مرة، أنا أريدها في ثوبها القديم، وهي تريد أن تزور صالة عرض الأزياء، هي تريد أن تذهب إلى الشمال وتعانق أبراج واشنطن ونيويورك، وتريد أيضاً أن تتسوق في أسواق البورصة العالمية وأنا أريدها أن تبقى في مكانها أو تتجه جنوباً إلى الرمال الذهبية وتحافظ على أصلها وفصلها، ومازال الصراع قائماً حتى كتابة هذه الحروف.

وفي النهاية سأطالب بتدويل القضية ورفعها إلى طاولات الأمم المتحدة وشكواي الوحيدة أعيدوا إليّ حبيبتي، ولدي الوثائق والصكوك التي أحتفظ بها في قلبي والكفيلة بإعادتها إلى رمالها الأولى، وتعود إليّ عشيقتي ونذهب معاً كالعادة ونسمر مع القمر والنجوم، عذراً منكم أيها الأخوة بسبب هذا الإغراق في التأمل، وأعدكم أنني سأكتب لكم عن أولى حلقات الذكريات في الموضوع القادم إن شاء الله.





مجاري السيول

عندما تسير في طريق الملك عبد الله من بدايته بالقرب من مستشفى الملك فهد التخصصي متجهاً شمالاً تجد نفسك وأنت تسير في بطن وادٍ يمتد من الشمال إلى الجنوب، جيلان ومرتفعات الفايزية على يمينك وحي الصفراء المرتفع قليلاً على يسارك، كان في ما مضى وادياً معروفاً يسمى «الودي» تصغير وادي، في زمن مضى شاهدته بعيني يجري ماراً بأرض التخصصي ثم ينعرج شرقاً قاطعاً طريق الشاحنات ماراً بين المحكمة وبندة الشبعان متجهاً شرقاً، وتتجمع سيوله أو «تفيض» في صناعية الرواف حتى تصل إلى أرض النقع.

وما سميت النقع بهذا الاسم إلا لأن السيول تتجمع وتنقع فيها، وعندما تزداد السيول تتعدى إلى منطقة «القاع البارد»، الأوائل من أبائنا يروون عن أسلافهم؛ أن هذا الوادي يصب في وادي الرمة قبل أن تحجزه الرمال، والله أعلم، قبل أن يبدأ العمل في المستشفى التخصصي ذهب نفر من كبار السن إلى المسؤولين وحذروهم من إقامة المشروع في هذا المكان لأنه مجرى وادي، ولكن اللامبالاة هي الحكم كعادة مسؤولينا ولله الحمد، وها نحن نشاهد الكارثة قبل خمس سنوات ولكن عناية الله أوقفت الأمطار قبل أن

يذهب أربعمئة مريض كانوا منوّمين فيه، واكتفت الأمطار بإتلاف الملفات وبعض الأجهزة الثمينة.

دعونا نستمر في الاتجاه شمالاً، شاهدوا كلية الزراعة، وتمعنوا في هذا المنخفض إنه يا سادة بطن واد واضح للعيان، ومع ذلك تقام المشاريع فيه بلا مبالاة ! والكارثة في الطريق، فهذا الوادي المسمى «بالودي»، يقترن بواد آخر شهير يسمى شعيب الفاجرة يتجه أيضاً جنوباً ويسير بمحاذاة وادي الودي إلى الغرب منه ولا يبعد عنه سوى حي الصفراء، هذا الوادي ينحرف إلى اليمين عن الوادي الأول ويسير ماراً في وسط (الاستاد) الرياضي ماراً أيضاً في أرض الحمراء، وسوف تشاهدونه واضحاً في هذه الأرض مخترقاً طريق المدينة، كان هناك جسر على هذا الطريق والآن لا نراه، يخترق هذا الوادي المعهد الزراعي حيث يقترن بشعيب صغير أيضاً قادم من غرب المعهد الزراعي وبالتحديد من جنوب الشقة يسيران بوسط شارع الأربعين بمسمى شعيب الفاجرة، يملأان «جفر الحمد» وهي تلك الأرض التي يقع عليها مبنى البلدية.

عندما تمتلئ هذه الحفر بالزائد من الماء؛ فإنه يجري في وادي الخبيب الذي تغير اسمه إلى شارع الخبيب ثم إلى طريق الملك عبدالعزيز متجهاً جنوباً حتى توقفه رمال السادة أو دوار السادة التي سميت الآن «دوار السيل» ولا أدري لماذا حور مسماها، الأوائل يقولون: إن سيل وادي الخبيب يصب في وادي الرمة قبل أن تسده الرمال.

دعونا نرجع إلى هذين الواديين العملاقين «الودي» و «الفاجرة» يقول الأوائل والله أعلم: إن هذين الواديين يقترنان معاً عند الدائري الشمالي ويكونان وادياً كبيراً يسمى وادي «أبورجم» هذا الوادي تأتي سيوله من مرتفعات الوطاة شرقاً ومن المنطقة المسماة «تورا بورا» وهي الأرض الوعرة جداً التي تقع شرق جبارة، لو ذهبت إلى هناك لا تصدق نفسك أنك قريب من بريدة، أرض جبلية خالية يأخذك الخوف والرعب عندما تصل إليها، كل السيول التي تأتي من هذه الأراضي تتجه إلى بريدة متفرعة إلى واديين يشقان المدينة طولاً من الشمال إلى الجنوب.

اسمحوا لي أن أطرح هذا السؤال: ماذا لو زادت السيول عن العادة ؟ ماذا تتصورون أن يحصل؟ دعونا نستعرض العوائق التي وضعت في طريق هذين الواديين لأجل أن نكون على بينة ومعرفة جيدة بالتصرف الجيد عندما تبدأ الكارثة.

وادي «الودي» وُضع في طريقه الكلية الزراعية والأحياء التي تقع إلى الشمال، ومشروع الراجحي، وحي الأمن، وحي التخصصي، هذه المشاريع سوف تجبر مياه السيول أن تتجه غرباً ولا يمكن أن تتجه شرقاً لأن منطقة الفايزية مرتفعة جداً، ويمكن أن نشاهد هذا الارتفاع وهذه الجيلان المرتفعة ونحن نسير في طريق الملك عبدالله إلى الشرق، سوف تقترن مياه وادي الودي مع مياه شعيب الفاجرة ولكن شعيب الفاجرة يقع في طريقه عوائق أيضاً، مثل الاستاد الرياضي، والأحياء التي تقع إلى الشمال وكذلك مجرى الوادي الذي رُدم في أرض الحمراء.

عندها سوف تجتاح المياه حي الإسكان بقوة وتنسف الحي بكامله شاهدنا هذا في الأمطار القليلة السابقة وكيف فعلت بهذا الحي، أما أحياء الأمن والسجون و الصفراء و التخصصي فسوف تكون في خبر كان وهذا في بداية الكارثة، وفي النهاية سوف تهاجم السيول وسط بريدة مارةً بطريق الخبيب وأحياء الخبيب الشرقية بشكل عام وهكذا سوف تكون أفظع كارثة في العالم.

ماذا نفعل عندما نشعر ونشم رائحة الكارثة ؟

اتجه إلى الشرق فوراً، وإن أمكن إلى الرمال الشرقية، لهذا أنصح الشباب وقد نصحتهم في موضوعي الأول أن يقيموا منازلهم المستقبلية شرقاً وعلى الرمال المرتفعة حماية لهم من تلك الكارثة التي صنعتها العقول الصغيرة والمهندسون الذين لا يرون أبعد من أنوفهم عندما يخططون مشاريعنا ومرافقنا الضرورية.

ماهو الحل اذاً؟

لم أجد حلاً سهلاً يمكن أن أطرحه على أولئك الذين لا يسمعون، ولكنّ هناك حلٌ هو أحلى الخيارات المرة وهو حفر قناة كبيرة تحت طريق الملك عبد الله، وخاصةً أن هذا الطريق لا يزال تحت الإنشاء، بدايته عند الدائري الشمالي وينتهي في الدائري الجنوبي على وادي الرمة وهذا – أعتقد- هو الحل الوحيد كما يمكن أن تبنى قناة ثانية تمر تحت طريق الإسكان وخاصة ذلك الطريق الذي يمر على أسواق العثيم متجهةً جنوباً وبطريقةٍ أو أخرى يربط بالقناة الأولى

على طريق الملك عبد الله.

أقول لكم هذا الكلام وأنا كلي أسف وخجل منكم إذا كنت قد سببت لكم خوفاً من هذه الكارثة، واعلموا أنني أول الخائفين لأنني سوف أكون أنا وأولادي الضحية الأولى، لأنني أسكن في بيت خرب شرق حي الأمن أقمته قبل ثلاثين سنة، وطول هذه المدة وأنا أتوجس من هذه المشكلة، أدعو الله أن ينجيني وإياكم مَن كل الكوارث، آمين يا رب العالمين.

في التسعينات الهجرية كنا نشاهد شارع الخبيب (طريق الملك عبدالعزيز) يغرق وتغرق المحلات التي كانت على جانبيه عندما تفيض «جفر الحمد» نتجه جريان وادي الفاجرة، حتى أنشؤوا قناةً تجري تحت شارع القناة وحُلت المشكلة بعد المعاناة الطويلة ودمتم.



Twitter: @ketab_n

أسوار بريدة

في البداية لابد أن أمر على تاريخ المدينة مروراً سريعاً وَجِلاً قبل أن أسقط في الفخ الذي وعدت نفسي أن أتجاوزه، وأذهب إلى الذكريات الجميلة والتأملات، لعلها تسد رمقي ورمقكم وشغفي وشغفكم في معرفة بيتنا الجغرافي الذي نبتنا فيه وترعرعنا في أحضانه ورضعنا من أيامه ولياليه السعيدة والحزينة حتى وجدنا أنفسنا نحمله فوق أكتافنا ونحمل محتوياته الكثيرة وأحداثه التي مرت بنا بسرعة فائقة وكأنه ليلة البارحة.

يقول شاعرها المغُرم بها «محمد عبد الله العوني»

هي أمنا واحلو مطعوم درها

ربتنا وغذتنا وحنا أعيالها

تلقى علينا الجوخ والشال من فوقنا

وهي عريانة تبكي ولا أحد بكى لها

لا أحد يستطيع أن يثبت لنا كيف تكونت؟ ومن أسسها؟

الحكايات غير المثبتة هي التي تحاول أن تجيب، ولكن على بعض الأسئلة وليس كلها.

أما بقية الأسئلة فإنها عصية على الإجابة.

الأشعار والحكم، والأمثال، ومسميات العائلات، والوقائع التاريخية، هي دليلنا للمعرفة، أما الآثار والبقايا والكتابات الأثرية فإنها ذهبت أدراج الرياح، ولم يعد هناك شيء ثابت نفاوض عليه.

هذا ليس واقعنا في بريدة فقط وإنما واقع جميع بلدان نجد، فالرمال تدفن كل شيء حتى الأسرار والنكات، بل وحتى الأفراح والأغاني الجميلة التي كان الناس يتغنون بها، بقيت تقول للذين يمرون بالقرب منها والذين يحاولون كشف أسرارها مثل المؤرخ العربي الشهير ياقوت الحموي أو المستشرق العظيم لوريمر «أتحداكم أن تكتشفوني، فأسراري لن أبوح بها لأحد أبداً».

هذا السر والغموض شاهده لوريمر على وجوه ساكنيها، وممارستهم حفظ الأسرار والتهرب من البوح بها، كل الذين حاولوا أن يحصلوا على إجابات باءت محاولتهم بالفشل، فالناس هنا لا يقولون كل شيء، ولكنهم أيضاً لا يكذبون، بل يتركون السائل يكتشف بنفسه إن استطاع. ملامحهم وتحركاتهم وتلميحاتهم الخطيرة تكمن فيها الإجابة، الأذكياء وحدهم هم من يكتشف الإجابة، أما الأغبياء فهي لا تحبهم ولا مكان لهم فيها، وهي لا تطرد أحداً مثل بقية البلدات المجاورة، بل ترحب بالجميع وأحياناً تدعوهم للبقاء فيها وتفتح لهم ذراعيها.

وهذا هو سر نموها العجيب بهذه السرعة الفائقة، ولكنها في الوقت نفسه تقذف الأغبياء خارج حدودها، بعد أن تمنحهم الفرصة تلو الفرصة.

يقول شاعرها العظيم محمد على العرفج رحمه الله:

لي ديرةٍ صوت الضحى عنا أو اقرب

وابعد من الأمصار شوفي خيالها

دارٍ بها اشرب يا شريبي وانا اشرب

دار تمنى شرب دمي ارجالها

«صوت الضحى»: يعني أنه قريب جداً.

(دار بها أشرب يا شريبي، وأنا أشرب) يعني نتعاون على الشرب معاً، وبهذا تخالف عادات العرب القديمة التي تجعل الأقوى هو الذي يشرب أولاً، والضعيف هو الأخير.

بريدة لها أب مؤسس يسمونه راشد الدريبي آل ابو عليان، هاجر إليها في بدايات القرن العاشر الهجري، جاء إليها من الجنوب هو وعائلته والتي تتفرع منها الآن أسر كثيرة. تنتسب إلى قبيلة بني تميم، موطنه الأصلي وادي حنيفة الذي يشمل سدير والوشم والعارض.

كانت تلك المناطق قد شهدت صراعات وحروباً أهلية وإقليمية أيضاً استمرت أكثر من مئة سنة، وسبب هذه الصراعات والمنازعات أطماع «الأشراف» حكام الحجاز «وآل عريعر» حكام الأحساء وكلا الفريقين يحاول أن يضمها إلى حدوده، حُسمت هذه الصراعات زمن الدولة السعودية الأولى وحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب عام 1157هـ/1744م، عندما تكونت ونشأت دولة آل سعود الأولى.

حدث خلال هذا الصراع الدموي الذي استمر نحو قرن، بعد أن هاجرت العائلات إلى شمال نجد وعندها نشأت البلدات الزراعية مثل بريدة وعنيزة التي نشأت قبل بريدة بنحو مئة عام.

حطت عائلة آل ابو عليان وزعيمها راشد الدريبي رحالها في هذا المكان بعد الترحال الطويل والشاق، كانت بريدة ماءً معروفة تشرب منها العرب، وكانت تهيمن على بئر بريدة قبيلة عنزة التي هاجرت إلى الشمال فيما بعد وتركت البئر لهذه العائلة على إثر قحط وجفاف استمر نحو ثماني سنوات يدلنا على ذلك أبيات أحد شعرائهم الذي حن إليها وهو يقول:

يا نجد إلى جاكِ الحيا فاندهي لي

مع الطيور وإلا موميات العلايق

ثمان اسنين ما هوى نجد قطرة

ولا مزنة هلت ولا ماض بارق

«موميات العلايق» يقصد بها الإبل، و «المزنة» يقصد بها السحب الغريبة.

من هذا الفراغ الذي سببته قبيلة عنزة شرع جدنا الأول في تأسيس هذه البلدة التي تقع على الحافة الشمالية لوادي الرمة، فبريدة تقع بين بلدتين، بلدة عنيزة من الجنوب وعلى ضفة وادي الرمة الأخرى وبلدة الشماس التي تقع إلى شمالها الغربي، والآن هي حي كبير من أحيائها، بلدة الشماس هي أيضاً نشأت قبل بريدة بزمن طويل ولا ندري متى، ولكن (السواليف) تقول لنا: إن أهلها عشيرة من الدواسر سكنوها قبل التاريخ ولا ندري هل في العصر الحجري أم بعده، وأمراؤهم عائلة الهميلي الذين يسكنون بلدة الشماسية حالياً بعد طردهم من مدينتهم العتيقة من قبل أهالي بريدة، بعد المعارك الطويلة التي حدثت بين البلدتين بسبب أن أهل الشماس تمردوا ورفضوا الدعوة الوهابية، وصلبوا شيخها العجاجي حتى مات، لا أرغب في الخوض في هذه الحادثة ولا بملابسات الأبيات الشعرية السابقة التي قالها الشاعر البطل محمد العلي العرفج آل ابو عليان، لأنها منزلقات خطيرة قد تودي بي إلى الهاوية ولكنني سأستمر بالتلميحات المختصرة فقط، وخاصة عندما أمرُ على التاريخ لأن المشكلة تكمن في تاريخ العائلات، واعتاد الناس على مديح تواريخهم ولا يرغبون في ذكر هزائمهم وسلبياتهم، وهنا تكمن خطورة التواريخ العائلية والقبلية.

التاريخ يسعفنا أيضاً ببعض الشذرات عندما يذكر لنا أن هناك منازل قد بُنيت قبل أن يأتي جدنا الأول راشد الدريبي، كانت

عبارة عن منازل محاطةٍ بالأسوار يأوي إليها الفلاحون ليلاً مثل السادة والعكيرشة والتغيرة.

مراسلات الغازي إبراهيم باشا إلى والده محمد علي حاكم مصر الذي زحف إلى نجد للقضاء على الدولة السعودية الأولى تقول: (كل بلدات القصيم استسلمت بلا قتال ماعدا «السادة» التي واجهنا فيها مقاومةً بسيطة)، (السوالف) تقول لنا: إن إبراهيم باشا وجه المدفعية ناحية باب السادة الرئيس، وأطلق قذيفته وقصفت الباب الذي طار بالهواء حتى سقط في بلدة الهدية وهكذا سقطت السادة، و عائلة الحسون أمراؤها، ويرجعون إلى بني تميم وهم أقرباء راشد الأبو عليان، هذا العناد والإصرار من عائلة الحسون تشاهده الآن واضحاً عليهم في قوة بأسهم وإصرارهم الشديد.

وجدنا راشد الذي أسسنا لا أدري كيف أسسنا؟ وليس هناك مصدر تاريخي ثابت أو أوراق أو مراسلات أستطيع أن أنهل منها علماً، وأنا عندما أقول: إنه جدنا فأنا أقول هذا الكلام لأنني ولدت في هذه البلدة وولد آبائي وأجدادي وكذلك أجداد أجدادي، ولكن من بنى سورها الأول؟ تقول لنا السواليف التاريخية العتيقة: إنه حفيد من أحفاد جدنا الأول، واسمه رشيد الدريبي الأبوعليان.

هذا السور الأول وكيف توسعت حتى تتالى عليها أربعة أسوار آخرها سور صالح الحسن المهنا أبا الخيل، وصالح الحسن هذا لا ينتمي ل(أبوعليان) لأن دولة العليان سقطت في أواخر الدولة السعودية

الثانية وآخر أمرائهم هو عبدالعزيز بن محمد آل ابو عليان جاء بعدها آل مهنا أبا الخيل إثر انقلاب عسكري خطير، وحركة تمرد حيكت في سواد ليل، بعد موجة تذمر وسخط من أهالي البلدة من هذا المغامر الخطير الذي وضع أهل بريدة في موقفٍ لا يحسدون عليه وهزيمتين أصبحتا تُذكران في ملفات التاريخ وحصدت الكثير من شبيبة البلد، وهي هزيمة بقعاء ضد محمد العبد الله الرشيد وهزيمة نفود اليتيمة ضد فيصل بن تركي آل سعود أقوى حكام آل سعود في الدولة السعودية الثانية، وهو جد الملك عبدالعزيز رحمه الله، فانتفض الأهالي بقيادة مهنا الصالح واحتلوا القصر وأعلن من المآذن سقوط حكم الأبو عليان وولادة عهد المهنا، أما عبدالعزيز الأبوعليان فإنه لجأ إلى شريف مكة، ومهنا الصالح هذا من سكان بريدة ويرجع نسبه إلى قبيلة عنزة وهو تاجر من تجار عقيل وقائد من قادة الحج الذين يحرسون الحجاج العراقيين حتى يرجعوا إلى العراق ولكنه أيضاً قُتل بحركة تمرد قام بها مجموعة من شبان آل أبو عليان ترصدوا له عند باب المسجد الجامع الكبير الشرقي عندما خرج لصلاة الجمعة، وكان ابنه حسن خارج بريدة ذاهباً لغارة عسكرية خاطفة، ولكنه عاد مسرعاً لما علم بالأمر وحاصر المجموعة في مقصورة القصر وفجر المقصورة بالديناميت حتى سقطت ومات الجميع وعاد حكم المهنا كما كان.

نرجع إلى موضوع السور الأول:

عندما تكون واقفاً عند باب الجامع الكبير الجنوبي في شارع الملك فيصل وتنظر إلى الجهة المقابلة للشارع تشاهد أمامك سوقاً مظللاً يسمى سوق الذهب وفي السابق يسمى سوق داحس الذي كان سوقاً للحوم، ما زلت أتذكر الجزارين وحركتهم الدائبة ومزاحهم ونكاتهم وضحكاتهم المجلجلة ومناداتهم على لحومهم ومديحهم لها وكأن هذه اللحوم نزلت من الجنة، يغرون الزبون بمهارة حتى يشتري رغماً عنه، وما علم أنها لحوم إبل مرت عليها العصور جميعها.

هذا السوق الجميل الصاخب فيما مضى، سوف أخصص له حلقة، لأنه يحمل أجمل الماضي الذي عشته هناك باسم سوق داحس.

استمر بالمسير بهذا السوق حتى تصل إلى منتصفه تقريباً، فستجده يضيق نوعاً ما، هذا المضيق هو الباب الشمالي لبلدة بريدة القديمة، في هذه الحالة يكون نصف السوق وشارع الملك فيصل وكذلك المسجد الجامع كلها خارج السور القديم تحرك وأنت متجه جنوباً وعلى بعد ثلاثين متراً تكون قد وقفت في قبة رشيد مؤسس السور الأول وليس مؤسس بريدة، ولا تنس أن مؤسس بريدة هو راشد، ورشيد هذا من أحفاده، استمر متجهاً جنوباً وكأنك ذاهب إلى سوق التحف الأثرية وعلى بعد ثلاثين متراً أيضاً تنتهي بريدة في هذه الحالة تكون بريدة القديمة والتي بني لها سور لأول مرة (ستون متراً بستين متراً) من الغرب والشرق وتكون مساحتها في هذه الحالة ثلاثة آلاف وستون

متراً مربعاً، ألم أقل لكم: إنها جميلة؟ وكأنك في أصغر استراحة في هذا الوقت، في نهاية بريدة من الجنوب يوجد مسجد ناصر، ذهب مع التوسعة، وهو أول مسجد بُني في بريدة قبل المسجد الجامع الكبير، الذي كانت مئذنته تقع على يمينك قبل أن تصل إلى التوسعة الجديدة، في البيت الذي يقع بجواره إلى الشمال.

وهذه ظاهرة غريبة لا توجد بالمساجد الأخرى، كنت أتذكره جيداً والآن دهسته التنمية ولم يبق منه إلا ذكره فقط، كانت قبة رشيد سوق بريدة العام، كل الأشياء تُباع فيها، كنت أتذكره جيداً، وأتذكر أيضا حركة الناس الجادة.

في الحلقة القادمة سوف أتكلم لكم عن حدود السور الأخير لبريدة لأنني أتذكره، أتذكرملامحه فقط وأعرف أبوابه جيداً، وكأنه البارحة، أما الآن فلابد لي أن أبوح لكم بسر، سوف أخبركم بموقع البئر الذي يسمى «بئر بريدة» والذي قامت عليه البلدة وهو الآن مدفون تحت الرصيف الوسطي لشارع الملك فيصل، أمام بوابة المسجد الجامع الكبير الجنوبية، وتحت الرصيف الوسطي مباشرة.

دُفنت البئر في أثناء توسعة شارع الملك فيصل، وكانت في ما مضى مكاناً للوضوء يتوضأ منه الناس للصلاة، كان داخل غرفة فيها (قرو) مصنوع من الصخر، والماء يخرج منه يدوياً بواسطة حبل ودلو، كنت أتذكره جيداً، وقد توضأت منه للصلاة، عندما كان المسجد الجامع الكبير مبنياً من الطين قبل أن يتأثر بالأمطار سنة الهدام، أما

بعد الهدام فبُني من حصى، بناه عُمال فلسطينيون، وفتحه الملك سعود غفر الله له عام 1379هـ/1959م، ما زلت أذكر مراسم الافتتاح كان عمري حينها نحو تسع سنوات، مازلت أذكر تلك الموسيقى العسكرية الصاخبة، وأولئك العساكر الذين تجمهروا حول المسجد، وتلك الفرق الموسيقية العسكرية، وأتذكر أيضاً ملامح الملك سعود وهو يصفق بعد الافتتاح، ولكن المسجد الجامع هذا جُدد بناؤه في عهد الملك فهد رحمه الله، وسمي باسمه.

كانت أياماً جميلة، تزخر فيها حيوية الطفولة؛ فبعد افتتاح المسجد بيوم تقريباً أعلن في بريدة أن الملك سعود سوف يوزع على الناس هدايا وأموالاً، فذهبت أنا وأختي، واصطففنا مع الناس وكنت خائفاً جداً أن يفوتني «التجسيم» ولكن بعد الوقوف من الصباح حتى العصر، استطعت الحصول على شماغ، وخمسة ريالات وأختي حصلت على «غدفة» وخمسة ريالات أيضاً، كانت فرحة عارمة شملت أرجاء البلد، أما أنتم أيها القُراء الشباب بالذات فأرجو منكم أن تحفظوا وصف البئر جيداً للمستقبل وعلّموه لأولادكم.



Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

سور صالح الحسن المهنا

يمتد بمحاذاة شارع الخبيب على المرتفع الغربي منه تاركاً بينه وبين شارع الخبيب مسافة المرتفع فقط، ويبدأ من نقطة إلى الشمال من مسجد العيد متجهاً شمالاً حتى يصل إلى المنحدر الذي تقع عليه عمارة الباخرة هناك الباب الشرقي والقريب من بائعي الخيام وإلى الشرق من مواقف السيارات الذي كان فيما سبق قصر بريدة أو قصر مهنا القديم ثم ينحرف غرباً متصلاً بسور الاتصالات السعودية تاركاً بينه وبين المواقف إلى الجنوب منه شارعاً بعرض عشرة أمتار، هذا الفاصل بين السور وسور القصر الشمالي هو الذي أوهم الأفراد الذين بعثهم عبدالعزيز بن رشيد إلى عامله على بريدة «ابن ضبعان» أن يصمد ولا يُسلم القصر عندما كان أهل بريدة والملك عبدالعزيز يحاصرونه داخله عدة شهور.

كان الرُسل يحملون رسالةً تشجع ابن ضبعان على الصمود، وقد قذفوها من خارج سور بريدة إلى القصر مباشرة ولكنها سقطت بالطريق بين القصر والسور ظناً منهم أن سور القصر ملتصق بسور بريدة وقد عثر عليها رجال الملك عبدالعزيز ولم تصل إلى ابن ضبعان،

حيث فقد الأمل وسلم القصر مقابل أن يخلوا سبيله ويلحق بابن رشيد، ولم يعلم أن ابن رشيد قد وصل بمعية الجيش التركي إلى القرعاء.

في القرعاء عقد «مؤتمر القرعاء» الشهير الرباعي قبل معركة البكيرية عام 1322هـ/1906م، بين ابن رشيد والأتراك بقيادة وزير الخزانة المصري «خورشيد» من جهه وابن سعود وأهل القصيم من جهة أخرى ووفد من الإنجليز بصفة مراقب لتقسيم المنطقة بين دولة الرشيد ودولة ابن سعود، وقد فشل المؤتمر فشلاً ذريعاً انتهت بهزيمة ابن رشيد بموقعة البكيرية.

يستمر السور الشمالي متجهاً غرباً مع سور الاتصالات. وقد شاهدت بقايا من هذا السور حيث يبلغ عرضه نحو متر ونصف حتى يأتي على الزاوية الجنوبية الغربية للاتصالات ثم ينحرف متجهاً إلى الشمال وعلى بعد ثلاثمئة متر ينحرف غرباً حتى يصل إلى شارع الصناعة وإلى الجنوب بقليل من مسجد الصائغ يوجد بابه الشمالي والذي يسمى باب الصنانيع قبل التوسعة، وظهور شارع الصناعة الذي كان طريقاً ضيقاً يمتد من باب المسجد الجامع الشمالي حتى ينتهي بالباب الشمالي يسمونه شارع الصنانيع، بعد الباب الشمالي يستمر السور الشمالي متجهاً ناحية الغرب حتى يصل إلى شارع المياه الذي تقع عليه مدرسة أحمد ابن حنبل، ثم ينحرف إلى الجنوب بمسمى السور الغربي تاركاً بينه وبين المرتفع الرملي مجموعة من المزارع والممرات الضيقة وهذه المزارع هي مزرعة الحبلين ومزرعة العجيبة ومزرعة البوطة ومزرعة الشقيري وهي التي تقع على شارع المياه

الجنوبي ومدرسة الأندلس، في زاوية سوق الخضار الشمالية الغربية وقرب مسجد المشيقح يقع الباب الغربي والمسمى باب البوطة، يستمر هذا السور الغربي متجهاً جنوباً مُدخلاً سوق الخضار داخله وكانت حياً كبير قبل هدمها حتى يصل إلى الإشارة التي تقع بالقرب من «أواني السيف» قاطعاً شارع الجملة والمسمى شارع ربيشة، عندها تقريباً ينحرف شرقاً ومازلت أذكر بقايا هذا السور وأذكر باباً صغيراً يسمونه « نتقة» الجديدة، ويستمر متجهاً شرقاً نحو مئة متر حتى يصبح مقابلاً لقبة رشيد وعلى بعد ثلاثمئة متر منها يقع الباب الجنوبي والمسمى باب «الصباخ» ينطلق منه طريق ضيق يصل إلى قبة رشيد، ويستمر السور الجنوبي متجهاً شرقاً حتى يتصل بالسور الشرقي بالقرب من مسجد العيد، ولكن لا يخلو السور من بعض الفتحات الصغيرة التي تسمى نتقة «مثل نتقة الجديدة» ونتقة السويد على السور الشرقي بالقرب من معرض الأدوات الرياضية القريب من الإشارة القريبة من مقر النقل الجماعي، كما يوجد بالسور بعض الأبراج أو المقصورات المعدة للمراقبة، شاهدت واحدةً منها قرب مدرسة الأندلس قبل التوسعة لسوق الخضار، ومن أراد أن يتوسع أكثر بتاريخ هذه المدينة فليرجع إلى كتاب الدكتور محمد الصالح الربدي من جزأين باسم «بريدة نموها الحضاري وعلاقاتها الإقليمية» كتاب أكاديمي مبني على معلومات ودراسات علمية جيدة، وكتاب ابن عمي المرحوم سليمان المحمد النقيدان «شعراء من بريدة» أيضاً من جزأين وقد تعب تعباً شاقاً، وبذل جهداً عظيماً حتى ظهر الكتاب بهذه الطريقة الجيدة، وكذلك كتاب الشيخ إبراهيم العبيد «عنوان المجد» ومعجم البلدان

للشيخ الأستاذ محمد الناصر العبودي.

السور مبني من الطين من نوع «العروق» وهذه الطريقة في البناء تختلف عن النوع الثاني المسماة البلك الطيني «اللبن» طريقة بناء العروق أقوى من النوع الثاني وأكثر تحملاً للأمطار أو مدافع العدو عندما يبدأ بدك الأسوار، شاهدنا ذلك في حصار «طوسون» ابن محمد علي حاكم مصر من قبل الأتراك «لمدينة الرس» عندما حاصرها ستة شهور وفي النهاية انسحب منهزماً.

طريقة بناء العروق: يُخمر الطين بالماء عدةَ أيام حتى يتحول إلى طينة متماسكة تشبه الصلصال، ثم يبنى الحائط به بارتفاع نصف متر تقريباً على طول الحائط المراد بناؤه، ثم يترك عدة أيام حتى يجف، ثم يبنون طبقة أخرى فوقه، وهكذا حتى يتم بناء السور كاملاً. بعكس بناء اللبن التي تشبه طريقة البناء في هذا الوقت، طريقة بناء اللبن لا تُستعمل إلا ببناء الغرف والممرات داخل البيت، أو أسوار الفقراء، أما أسوار المدن، أو بيوت الأثرياء فإنها تُبنى بطريقة العروق خوفاً من نهبها من طرف العدو وأحياناً يقوم التجار بالبناء على أموالهم النقدية أو جنيهات الذهب في وسط السور، وحتى عندما يأتي العدو ويفتش البيوت لا يجد شيئاً. إحدى الدكاكين التي كنا نملكها في قبة رشيد، عندما أردنا تجديدها قبل عشرين سنة، وهدمنا إحداها وكانت قبل سبعين سنة مؤجرة لشخص مشهور ببخله، مات جائعاً، وعاش أولاده جائعين، عندما هدمناها سالت علينا من الجدار قطع نقدية من العملة الهندية القديمة التي تسمى «البيزة» وقد فات

تاريخها منذ زمن ولم تعد صالحةً للاستعمال، هكذا مات جائعاً وهو يملك أموالاً طائلة ولم يستفد منها ولا حتى عائلته من بعده، فالناس لا يعلمون بالضبط متى ينفلت زمام الأمر وخاصةً في تلك الفترات التي نمر على ذكرها، كان نبأ الانقلاب الجديد يعلن عن طريق المآذن كما يفعل المؤذن عند الأذان للصلاة ويعلنونها في أي وقت يحصل فيه الانقلاب ليلاً أو نهاراً وبهذه الطريقة «الحكم لله ثم لفُلان» ويستمر يرددها حتى يسمع هذا النداء جميع من في المدينة.

حصل في يوم ما أنه أعُلن في يوم واحد انقلابان أحدهما صباحاً والآخر عصراً، يعني تغيرت الحكومة مرتين في يوم واحد، وفي المسجد الجامع هذا الذي نشاهده كل يوم قتل أحدهم ثمانية أفراد من أبناء عمه أثناء خطبة الجمعة وتحولت الخطبة الى عرضة نجدية احتفالاً بالعهد الجديد بدل إقامة الصلاة وبناءً على هذا التاريخ المضطرب تعتبر بريدة أم الانقلابات العسكرية في تاريخ نجد كله، وقد تفوقت على العراق في زمن مضى، ولكن العراقيين يسحلون زعيمهم، ونحن نقطع رأسه ونعلقه بالسوق لمدة ثلاثة أيام، ولو تكلم سوق الذهب هذا أو الوسعة التي أصبحت توسعة للجامع من الجهة الشمالية؛ كم من الرؤوس عُلقت لصعقتم من الدهشة، ولعرفتم جيداً كيف كان أجدادكم، وكيف يتعاملون مع الأحداث، ولكن بريدة هي بريدة أم السلام وأم الحياة وأم الأنعام وأم النخيل الزاهية وأم الحكايات المدهشة وأم الحركة الدائبة التي لا تلين ولا تستكين، وملفاتها دائماً مفتوحة، والشمس تشرق منها وتغرب فيها، وسرها يكمن في «محيزرتها».



بريدة ليست لأحدٍ من أهلها

هذه العبارة كانت لسؤال ظل يدور في مخيلتي عدة سنوات.
لماذا توسعت بهذه السرعة حتى أصبحت مدينة مليونية؟

وهي إجابة لهذا السؤال وقد حصلت عليها عندما رتبت أسباباً كثيرة من مراقبة أحداثها القديمة، وهذه الأسباب هي:

1- بريدة أنشأها المهاجرون ولم تنشأ من جماعات قديمة كانت موجودة في هذا المكان.

2- جاء المهاجرون على شكل جماعات وفي أوقات متباعدة وكل جماعة لها رأيها ولها ترتيباتها الخاصة ونظرتها التي تحتفظ بها لنفسها.

وأدى هذا الاختلاف في البداية إلى شكل من الانقلابات العسكرية المتكررة، واستمرت هذه الاضطرابات بشكل عنيف حتى دخلت هذه المنطقة في العهد السعودي، فتوقفت بعدها النزاعات المسلحة وتحولت إلى تيارات سياسية ودينية متعددة أهمها ثلاث تيارات سياسية، ومدرستان دينيتان.

1- تيار الموالاة، وأعني به الموالين للملك عبدالعزيز، وهو التيار الغالب، وأهم شيوخه فهد العلي الرشودي، ومحمد الشريدة.

2- التيار المعارض، أو الموالي لابن رشيد، وهو تيار أقلية تمثله أسر محددة.

3- تيار الاستقلال، والذي يفضل الاستقلال عن دولة حائل، ودولة الرياض، ارجع إلى كتاب الدكتور محمد الربدي «بريدة حاضرها ومستقبلها» لأنه يوضح للقارئ تفصيلات أكثر.

والمدرستان الدينيتان:

مدرسة آل سليم، وهي التي تكفر الأتراك، ومدرسة الشيخ إبراهيم الجاسر، والتي لا تكفر الأتراك، وهي أكثر انفتاحاً من مدرسة السليم الموالية للملك عبدالعزيز رحمه الله.

انتهت هذه الجماعات عندما اتحدت أخيراً تحت لواء الدولة السعودية وتوقفت النزاعات المسلحة وبهذا دخلت المنطقة عهداً جديداً وتحولت هذه التيارات إلى جماعات سلمية ولكن لكل واحدةٍ رأيها الخاص بها، لهذا نشاهد اليوم الجماعات المتعددة لهذه المدينة وكل له رأيٌ يختلف عن رأي الجماعة الأخرى، وهذه مزية حسنة في رأيي، فتعدُّد وجهات النظر أكسبها روح الديمقراطية، هذه الروح التي ألغت هيمنة الرأي الواحد الذي يتحكم باقتصادها مثل المدن القريبة منها وصارت بلداً مفتوحاً يأتي إليها المهاجرون ويعملون بحرية تامة

لا يصطدمون بأية عوائق، يعملون كيفما يشاؤون والعبرة بالنجاح، لذلك أصبحت بلداً للجميع وسبب نجاحها وتوسعها الهائل يكمن في تكوينها الوراثي وقبول أهلها لكل مهاجراً يأتي ويعمل بها بكل حرية وسط احترام الجميع، وأصبحت المدينة الرابعة، ولم يكن لها شرعية لتكبر لولا هذ السبب. توسعت الرياض لأنها عاصمة الدولة، وتوسعت مكة لأنها العاصمة المقدسة، أما الدمام فلأنها عاصمة النفط، وأما بريدة فما الذي يجعلها تكبر لولا تلك الأسباب التي ذكرتها؟

هكذا أصبحت بريدة ليست لأحد من أهلها وإنما لكل أهلها.



Twitter: @ketab_n

قصر بريدة

فوق رملة المساء كل الأفكار مباحة، كل شيء أمامك يغريك بأن تستعرض شريط الأفكار؛ الشمس وهي تغادر إلى المغيب، والهواء المتُعب من الركض كل يومه، حتى رائحة الرمث التي تغني بالمكان والزمان تحرضك على الذكريات، على ذكريات ماضٍ مضى ولم يعد، مضى بسرعة الضوء، ولم يعد يمر من هنا، فوق رملةً المساء المجنونة وأمام الماعز والطليان تحاول بكل ما معك من قوة خيالية أن تستجلب البعيد وتغريه أن يمر أمامك ولو مرةٍ واحدة حتى تُمتع روحك وخيالك بأيام أعددتها للمستقبل ذهبت أدراجً الرياح ولم تعد محسوبة الآن، إنها أوراق نقدية قديمة لم تعد صالحة ولا يمكن التعامل بها الآن، وملفات طويت تعداها العصر، وذكريات سحيقة أليمة وسعيدة، جروح بعضها اندمل وبعضها الآخر يدق في خيالي ونفسي يحاول أن يزيحنيً ويكتسحني، وأشياء سعيدة كفتاة بريئة ذات عينين كحلاوين وشعر ناعم ابريسمي يتطاير في الهواء، تحاول أن تعينني على النهوض، ولكن فوق كتفي أثقال تزن الجبال رزانة، لا أستطيع النهوض ....

قلُت لها : (ارقصي وحدك يا عسليتي !!!، فاليوم أنا غير موجودٍ هنا !!!) (إن الذي أمامك هو أضغاث أحلام فقط وصديق

أحلامك تنازعه الأيام والليالي ...) وشريط الذكريات الطويل، ورملة المساء المجنونة، وهبوب الزمهرير، والشمس المخملية التي تريد أن تغادر وتتعشى وتنام، والماعز المشاغب الذي ينسج خيوط تمردٍ في سواد ليل، وفجأة مر أمامي قصر بريدة القديم، والجردة الفيحاء، فصحت بها أن تتوقف، أن تقف أمامي وتتركني أتفحصها ورقةً ورقة أقرؤها بأعلى صوتي حتى تسمعها الأجيال الصاعدة وتصرخ بصوت عالٍ (هل القصر والجردة مرا من هنا في يوم ما؟)، وعندما سمعوا القصة كاملة غير منقوصة صاحوا بأعلى أصواتهم (أنت قديم جداً ولا يمكن المرور عليك). وقالوا أيضاً: إن رأس تؤلمك فعلاً، فقلت لهم: إني أحب هذا الاسم فسموني به دائماً واكتبوا على قبري: (الشهيد وجعان الرأس).

قصر بريدة

هو ذاك الفناء الواسع الذي هو الآن مواقف للسيارات، عندما تكون سائراً بشارع الملك فيصل متجهاً شرقاً وقبل أن تنحدر إلى شارع الخبيب (طريق الملك عبدالعزيز) انظر عن يسارك تجد مكاناً متسعاً تقف فيه السيارات، وانظر عن يمينك أيضاً نحو فناء واسع آخر تجد الجردة.

كانوا يسمونه قديماً (قصر مهنا)، أي مهنا الصالح أبا الخيل مؤسس مرحلة آل مهنا، ولكن الذي بناه هو ابنه حسن، وفي الآونة الأخيرة بدؤوا يسمونه (القصر) فقط من دون ذكر من بناه،

وهو يمتد على مساحة عشرة آلاف متر مربع، بأطوال مئة متر من جميع الجوانب وبمحيط أربع مئة متر تقريباً[1].

توقف العمل به كإدارة حكم عام 1373هـ/1953م، ولكنه استمر قائماً حتى بعد نهاية عام 1376هـ/1956م، حيث دمرته سيول «الهدم».

وانتقل مقر الإمارة إلى المبنى الجديد الذي يسمى الآن الإمارة القديمة ومبنى الدفاع المدني ومركز شرطة بريدة الجنوبي، كان هذا القصر الجديد مبنياً من الطين أيضاً ويقبع فوق رملة مرتفعة، ولكنه لم يكن مقر حكم وإنما كان سكناً للأمير فقط، أما إدارة الحكم فكانت عمارة موسى الحمد عندما كانت فيما مضى بيتاً ضخماً مبنياً من الطين أيضاً وفي النهاية أصبحت مقراً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكنها هُدمت أخيراً وبنيت هذه العمارة الطويلة التي تشاهدها الآن.

بعد ذلك انتقل مقر الإمارة إلى عمارة جديدة غرب مسجد الشلال ولكنها هُدمت أخيراً لامتداد شارع الملك فيصل حتى ينفذ إلى شارع الخبيب لأن شارع فيصل كان يتوقف في الجردة من الناحية الشرقية، بعد ذلك انتقل مبنى الإمارة إلى الإمارة القديمة ثم إلى الصفراء بالمبنى الجديد.

---

(1) انظر كتاب الدكتور محمد الصالح الربدي «بريدة ماضيها ومستقبلها».

على أنقاض القصر حصلت أشياء وأشياء قبل أن يصبح موقفاً للسيارات، كلها ذكريات وجولات من الأحداث التي تدركها أجيال الستينات، ولكن قبل أن نبدأ بها دعونا نتذكر القصر نفسه كما شاهدته وأنا في السابعة من عمري.

المباني الموجودة في داخل القصر تقع في الجهة الشمالية والغربية، وتترك فناءً واسعاً من الشرق والجنوب، له باب كبير في الجهة الجنوبية المواجهة للجردة وبالتحديد مقابل عمارة موسى الحمد يميل إلى الشرق قليلاً يشرف على حركة البيع والشراء في الجردة، له كرسيان طويلان مبنيان من الطين واحد إلى الشرق والآخر إلى الغرب يجلس عليه حراس الأمير، وما زلت أتذكر مشهد الغزلان وهي تخرج من القصر وترعى على جوانبه وعندما تقترب منها تسارع إلى الدخول «كأنها البارحة» هُدم في أواخر عام 1376هـ/1956م لأنه أصبح بعد السيول الكثيفة آيلاً إلى السقوط في أية لحظة، أخرجوا منه ثلاثة مدافع قديمة ترجع إلى أيام الدولة العثمانية، ومعها بعض الذخائر المستعملة وغير المستعملة، وانتشرت هذه القنابل بين الناس وكنا نتداولها بالأسواق وقد اُستخدمت أخيراً أثقالاً للموازين التي يعايرون بها البضائع، واستمرت طويلاً تستعمل في أسواق اللحوم والبرسيم والتمور.

استعملت المدافع لإعلان الأعياد ودخول شهر رمضان، كنا نتجمع هناك لتلقي البشرى ومشاهدة انطلاقة المدافع التي تدوي بأرجاء المدينة، كنا تلك الليلة التي لا أنساها موجودين عند المدفع بعد

إفطار آخر يوم من رمضان، وكانت فرحتي أكبر من الدنيا لا لشيء وإنما لأجل الثوب الجديد الذي سوف ألبسه صباحاً مع شروق الشمس وإقامة ألعاب العيد على الطريق، ثوب العيد سهرت عليه والدتي وهي تُخيطه بيدها وبإبرة عادية قبل ظهور مكائن الخياطة.

هل تريدون أن تسمعوا من أي صناعة هو؟ حسن استمعوا: كان قماشه من نقيض كيس من التمر الذي يأتي إلينا من العراق مصنوعاً من الخام وعليه رسمة القط الأزرق، كانت والدتي تقصد أن تكون رسمة القط تأتي على صدري وكأنها وسام شرف من الدرجة الأولى، كنت أشعر أنني وسيم بهذا الكيس وأتباهى به بين أقراني من الأطفال وكأني الممثل «محمود ياسين» أو أكثر وسامةً، لماذا لا أتباهى ونصف الشلة لا يملكون ثوباً جديداً؟

لماذا لا أتباهى بين البائسين والفقراء؟ لماذا لا أتباهى وطبق العيد الذي يقدم على قارعة الطريق عبارة عن رز من النوع الرخيص الذي لا يوجد فوقه أي نوع من أنواع الدسم كالذي يقدمه علية القوم والأثرياء من الناس، أما البائسون فإنهم يملؤون بطونهم ما أمكن من ذلك؟ لماذا لا أتباهى بهذا الوسام والحياة تراب على تراب؟ وما في البطون من التراب أكثر مما هو على الأرض، إنها أيام عشناها وكنا أفضل حظاً من الجيل الذي قبلنا لأن الحياة بدأت يدب فيها النشاط، والانتعاش الاقتصادي بدأ يعزز بطون الجياع، وبدأ الناس يأكلون كل يوم تقريباً.

نرجع إلى قصرنا الميمون فأقول:- كنت قد تذكرت حادثة طريفة لابد من ذكرها وكان الناس يتداولونها سنوات عديدة ويضحكون منها.

كان أحد خدم الأمير من المسؤولين عن رمي المدفع وكان يحب الشجاعة ويحلم أن يكون شجاعاً في يوم ما، ولكنه طيب القلب وله تقدير بين العامة أراد أن يعمل شيئاً أمامَ ذلك الحشد من الناس الذين يزغردون ويهللون بفرحتهم بالعيد، ورغب أن يركب فوق المدفع في لحظة انطلاقته، وفعلاً نفذ في وسط احتجاج زملائه ونُصحهم له أن لا يفعل ولكنه كان مصراً على ذلك مهما كلفه ذلك، بعد ذلك انطلق المدفع بصوتٍ لم يسبق له مثيل، أرعدت فيه السماء وبرقت وأهتزت المدينة، واهتزت معها القرى المجاورة في صوتٍ أرهب الناس، وتخلخلت بيوت الطين من شدة الاهتزاز ولكن ماذا حصل لصاحبنا الشجاع المسكين؟ لقد حصلت كارثة!! يبدو أن الذي حشا المدفع بالمادة المفجرة قليل الخبرة فزاد مادة التفجير، انفصل المدفع إلى ثلاثة أجزاء: انفصلت العجلات الحديدية عن بطن المدفع، واندفعت الماسورة إلى الأمام وصاحبنا وبطن المدفع طارا بالهواء ثم وقع على الأرض ووقع بطن المدفع الثقيل على ساقيه فانكسرتا وتعطلت لديه قوة السمع، ونقل إلى بيته في حالة يرثى لها، فجلس سنوات وسنوات يعاني المأساة حتى استرد عافيته فيما بعد مع بعض الخسائر الجسمية ومنها السمعية. هذه الحادثة وقعت ونحن نشاهد أحداثها فقرةً فقرة، وانتهت أيام الأعياد وهي حكاية الناس وسط آسى وذهول الجميع، وتساؤلات كثيرة لم تنقطع إلا بعد سنوات، كان هذا المدفع القديم جداً

من تركة العثمانيين وقد نخر بحديدة السوس ولم يعد يقاوم.

وهكذا ختم المدفع تاريخه المجيد بهذه المأساة.

في الحلقة القادمة سوف نتابع أحداث القصر بعد هدمه والمراحل التي مر بها قبل أن يكون مواقف للسيارات ودمتم.



Twitter: @ketab_n

القصر

في أواخر السبعينات وبداية الثمانينات الهجرية حدثت طفرة زراعية في نواحي الوطن جميعاً، استمرت حتى عام 1395هـ/1974م، تقريباً.

وكانت هذه الطفرة الزراعية تختلف اختلافاً جذرياً عن الطفرة الزراعية التي حدثت في بداية 1400هـ/1979م، لأنها اتجهت مباشرةً إلى الطبقة الزراعية الصغيرة، واعتمدت في خطتها على التنويع الزراعي وبخاصة زراعة الخضراوات والفواكه، وإنعاش الفلاحين والمزارعين الصغار، واعتمدت أيضاً على توجيههم التوجيه الصحيح، وكانت المساعدات التي تدفعها الدولة تعتمد على أنواع البذور الجيدة، والمحصولات الزراعية الجديدة، ومساعدة الفلاحين بالمبيدات الحشرية والأسمدة، وتعتمد في ريها للمزارع على الطرق القديمة التي ساعدت على إعادة المياه مرةً أخرى إلى الأرض بدل الري المحوري، الذي جعل المياه تتبخر بدل تسربها إلى باطن الأرض، مما جعل منسوب المياه الآن يفقد جزءاً ضخماً من الاحتياطي حتى وقعنا في أزمة لا ندري كيف الخروج منها، وكانت الخطة القديمة العملاقة أدت إلى نزوح فلاحين مع عوائلهم إلى الأراضي الجديدة التي ابتدعتها

الدولة، وبخاصة في منطقة البطين والدغمانيات والراشديات، وصرنا نشاهد مناطق زراعية لم تكن بالحسبان، تعتمد في عملها على الأيدي الوطنية من رجال ونساء وحتى أطفال، فحدثت ثورة عمل منقطعة النظير، وصارت البراري المنقطعة تنبض بالحياة وبحركة دائبة كخلية نحل.

وهذه الثورة الزراعية تختلف عن التالية والتي قامت عام 1400هـ/1979م، حيث إن هذه الخطة الجديدة تعتمد على زراعة القمح فقط، وجاءت في صالح رجال الأعمال والطبقة الزراعية المقتدرة، فقد جلبت معها الأيدي العاملة الأجنبية، وأصبحنا سوقاً مشرعاً للمنتج الأجنبي، والأدوات الزراعية الضخمة التي تباع إلينا بملايين الريالات، وقامت الدولة بشراء منتج القمح بثلاثة ريالات للكيلو الواحد، بينما سعره العالمي 18 قرشاً فقط.

ذهب المال إلى جيوب الأغنياء والمصانع الأجنبية، واليد العاملة الأجنبية، ولم يستفد منها ابن البلد بأي شيء، كما أنها خربت الأراضي الزراعية البكر، ولوثت الأجواء بمخلفات الحرائق وغيرها، ونهبت كميات هائلة من الاحتياطي المائي للوطن، ولو استغنينا عنها لاحتفظنا بالاحتياطي المائي وببكارة أراضينا، ووفرنا أموالنا في جيوبنا ولاستغنينا تماماً عن هذه اليد العاملة الأجنبية، ولاكتفينا بشراء القمح من الأسواق العالمية وهو أفضل بكثير، ولكن هذا ما حصل ولا يمكن إعادة الأحوال إلى ما كانت عليه.

نعود إلى أيامنا الأولى وثورتنا الزراعية التي حدثت في الثمانينات والتسعينات من القرن الهجري الماضي، والتي كانت هادفة ومخططةً تخطيطاً جيداً استفاد منها الجميع.

تلك الثورة العملاقة أنتجت محاصيل كثيفة وجديدة لم تُعرف من قبل مثل الخس، والجزر، والكوسا، والبطاطس، والبطيخ بجميع أنواعه والعنب والرمان، وأصبحت الحاجة ملحة إلى إيجاد أماكن وأسواق واسعة جديدة بدل «قبة رشيد» التي صارت لا تستوعب هذه الكميات الكثيرة والمتنوعة، فأصبحت ساحة القصر الشرقية والجنوبية هي المكان المناسب لذلك، ومن هنا استعاد القصر أهميته مرةً ثانية بعدما كان نسياً منسياً، كان في الماضي مكاناً لإدارة الحكم ووضع الخطط الحربية، وحماية البلد، والآن بدأ يقوم بدورٍ آخر، حيث إنه تحول إلى مصنع للرجال وبناء الأجيال المستقبلية التي لعبت دوراً مهماً فيما بعد، عندما صارت هي القوة التي أدارت هذا الوطن العزيز بعدما تخرجت من هذا السوق العظيم.

نحن نمر الآن من هذه الساحة العظيمة عابرين ولا نكاد نلقي عليها السلام، أو نتوقف لحظة سكون عام احتراماً لهذا الميدان العظيم، وجميع آبائكم أيها القراء الشباب يعرفون جيداً ما الذي تعنيه تلك الأيام الماضية، كما أنهم يعرفون جيداً هذا السوق العظيم، وكيف صنع لنا رجالاً يفخر بهم تاريخنا.

غالبية المحاصيل الزراعية كانت تنتج في فصل الصيف وفي بداية العطلة المدرسية، مثل البطيخ مما ساعد الشباب على العمل والمشاركة الجدية فيه، والاستفادة من الإجازة الصيفية واستثمار الوضع الجديد، مما أدى إلى حصول هؤلاء الشباب على عائد جيد ومبالغ لا بأس بها تساعدهم في توفير مصروف جيد في أوقات الدراسة الطويلة، إذا علمنا جيداً أنه في تلك الأزمان الماضية لم يكن في قاموس الآباء دفع أي مصروف لأبنائهم، لأنهم يطبقون القانون الأممي الجاد والذي يقول «لا مال بلا مقابل» هذا هو مبدأ العصامية عند الشعوب الجادة حيث الابتعاد ما أمكن عن تخريب الأجيال، أما اليوم فنحن نرى نتيجة أعمالنا وتجاوزنا هذا المبدأ الذي أدى في النهاية إلى إنتاج شباب لا يُعتمد عليهم لا في الحاضر ولا في المستقبل. كان مبدأ «لامال بلا مقابل» متعارفاً عليه حتى بين الطبقات الغنية إلى وقت قريب، حيث كان الناس يحرصون كل الحرص على تربية أفراد قادرين على مواجهة الحياة، وكانت النتيجة لتجاوزنا هذا المبدأ أنه أصبح لدينا كمية هائلة من أشباح الشباب، لامعنى لهم ولا هدف لديهم.

على ساحة القصر تبدأ المعركة صباحاً، فبعد صلاة الفجر يتم (الحراج) على الكميات الهائلة من البطيخ التي وردت من مزارع البطين وغيرها من المناطق الأخرى، فتنطلق أصوات الدلالين معلنة بداية الحراج، ثم يستعد التجار لمناوراتهم المدروسة جيداً، ويبدأ الكر والفر، وتتعالى الأصوات من كل جانب، وتتصور وأنت ترقب الوضع أن هناك معارك حقيقية، فتمتزج الأصوات بعضها ببعض، وتختلط بأصوات السيارات والحمير وكثرة المنادين على بعضهم، والملحمة

تتصاعد شيئاً فشيئاً، ويختلط الحابل بالنابل، وتشعر وأنت تقف في وسطها أن الأرض زلزلت من تحت قدميك، بعد ساعات قليلة تهدأ وتخف الأصوات المجلجلة وقد بيعت كل الكميات تقريباً، ثم تبدأ بعدها معركة من نوع آخر، معركة شحن هذه البضائع إلى الدمام والرياض وجدة وحتى دول الخليج، لأن الكمية الهائلة من البطيخ المجلوبة أكبر من احتياج المدينة، ولا بد من تصديرها إلى أسواقٍ أخرى وبأقصى سرعة قبل أن تفسد.

جيوش الشباب والبراعم الصغيرة كانت توجد في الساحة، ومستعدة لشحن الحمولات إلى الشاحنات المتوقفة التي تنتظر نصيبها، يتوافد الفتية والشباب من كل جهات المدينة، لا فرق بين ابن الغني وابن الفقير، الكل يحاول أن يثبت جدارته للحصول على مبالغ مجزية، لأنهم كانوا يهيئون أنفسهم وهم في أواخر السنة الدراسية، فترى مئات البراعم يتوزعون على شكل فرق، كل خمسة أو ستة يحكمهم رئيس، كل فرقة تستلم شاحنة، ولا يأتي موعد أذان الظهر إلا وكل فرقة قد شحنت سيارتين أو ثلاثاً، بعمل شاق ومضنٍ يدفعهم إلى ذلك الرجولة والطموح المنقطع النظير.

كانت أجرة الشخص الواحد للسيارة الواحدة خمسة ريالات، والرئيس الذي يكون مسؤولاً مسئولية تامة عن تنظيم البطيخ على السيارة أمام صاحب العمل يستلم سبعة ريالات، ولا ينتهي العمل إلا وقد حصل كل فردٍ منهم على خمسة عشر ريالاً، إذا عرفنا أن هذا المبلغ يشكل في ذلك الوقت قيمة لا بأس بها، وأن هذا المبلغ يستطيع أن

يصرف على عائلة أربعة أيام أو خمسة.

تنتهي هذه المدة من العمل عند أذان الظهر، لتبدأ بالمساء فترةٌ جديدة أخرى، وهي تنزيل حمولة الشاحنات التي جاءت من المزارع، لتأخذ دورها في الصباح الباكر، ترقُب هذا المشهد وأنت ترى هؤلاء البراعم عاصبين رؤوسهم بغترهم، ومشمرين عن سواعدهم، ولا بد أن تحكم وأنت ترى كل ذلك العنفوان في الشباب والصبيان على أنه عنوان النجاح.

دارت بنا الأيام وها نحن نرى حالتنا اليوم وحالة شبابنا، شبه ميؤوس منها، اليوم ينوب عن أبنائنا أجناس من الناس لايمتون إلى الوطن بصلة.

إنها نوع من سخرية القدر التي أرجو أن لا تطول وتعود المياه إلى مجاريها، ونعود لتسجيل الانتصارات.

في ساحة القصر وفي أثناء هذا العمل الشاق يحدث أشياء وأشياء وطُرف(نكات) ومقالب بين البراعم لتجميل جو العمل، منها مثلاً: أن بعض أصحاب العمل يكون شديداً ولا يريد أية فرصة تضيع، حتى أنه لا يسمح لهم بشرب الماء نتيجة العمل بهذا الجو الحار، فيتحايلون على الموقف لإيجاد مخرج من هذه الأزمة، فيقوم أحدهم بقذف البطيخة على زميله الذي يتناولها في الشاحنة ولكنه يقذفها بطريقة مائلة فتسقط وتنكسر، ثم يهجمون عليها ويبتلعونها بدل الماء تحت وطأة جوٍ صاخب من رب العمل، والتهديد والوعيد بخصم قيمة

البطيخة ولكن الشباب لا يكترثون لذلك.

وبهذه المناسبة لا بد من ذكر بعض النوادر الجميلة عن المجتمع نفسه.

فقد حرم بعض السذج تناول الخضروات الجديدة التي لا يعرفها المجتمع قبل ذلك مثل الخس الجزر والبطاطس والفجل، وادعى بعضهم أن من تناولها «ديوث» حتى وصلت الأمور إلى أن قال: إنها من مأكولات اليهود والنصارى ومن أكلها فإنه يتشبه بهم، ومن تشبه بقوم فهو منهم، كما حصل في فترة الستينات الهجرية عندما ادعى بعضهم بأنه لا تقبل شهادة شارب الشاي، ووصل الأمر إلى قياسه بالخمر.

فكل جديد عند الشعوب المتخلفة يعتبر محرماً حتى تثبت براءته، موعدنا في الحلقة القادمة للحديث عن «الجردة».



Twitter: @ketab_n

الجردة

«جردة» مصطلح شعبي يطلقه الناس عادةً على الأرض الرملية المستوية، وإن زاد ميلان الأرض الرملية قليلاً يسمونها «صيهد»، وإن زاد الميلان أكثر يسمونها «ظهر» أي ظهر نفود، لهذا اكتسبت ساحة الجردة هذا المسمى. ويدل هذا المصطلح أيضاً على الأرض الجرداء الخالية من النباتات والأشجار.

وكلا التعريفين ينطبقا تماماً على ساحة الجردة.

وساحة الجردة هي ما يكون على يمينك قبل أن تنحدر لشارع الخبيب، تُقابل ساحة القصر من الجنوب، دخلت ضمن سور المدينة في عهد الأمير صالح الحسن المهنا تقريباً.

صارت سوقاً لبريدة عام 1340هـ/1921م، وخاصةً للإبل والأغنام بعد أن ضاقت ساحة الوسعة عن تحمل هذه الكمية الضخمة من الإبل، وساحة الوسعة أصبحت توسعةً للمسجد الجامع من جهة الشمال.

تعتبر الجردة سابقاً أكبر سوق للإبل بالعالم، وقد أكد هذا

الخبر غالبية المستشرقين الذين زاروا المنطقة، منها انطلقت قوافل عقيل إلى العراق والشام وفلسطين ومصر، وقد أسسوا أسواقاً لهم بهذه الدول، فمثلاً سوق الشيوخ في بغداد وحي «صوب عقيل» في بغداد وسوق العصر في دمشق وسوق بلبيس في مصر كلها أسواق للإبل احتكرها أهل القصيم وقاموا بتأسيسها، كما أسسوا أسواقاً أخرى ومدناً داخل المملكة، مثل حفر الباطن ومدينة رفحا ولينة وفي العراق أسسوا مدينة الزبير وما زال بعضهم يقيم فيها حتى الآن، انطلقوا جميعهم من ساحة الجردة للبحث عن الرزق في الأيام الخوالي الموحشة.

بعض الناس الآن اختلط عليه الأمر وصار يسمي سوق الخضار بالجردة وهذا خطأ كبير وتشويه لمعالم المدينة وإهانة فاضحة لساحة صنعت رجالاً ما زلنا نفتخر بهم ووضعوا لنا تاريخاً مجيداً يجب أن نعض عليه بالنواجذ.

تغير بالجردة أشياء وبقي فيها أشياء لم تتغير، وما زالت تمارس عملها التي كانت تقوم به، فالشكل العام للجردة لم يتغير فيه شيء كما كنت أذكرها قبل خمسة وخمسين عاماً، مُحاطة من الجهة الغربية والجنوبية والشرقية بالدكاكين المظللة ولكنها مبنية جميعها من الطين ومسقوفة بالخشب، والجردة مفتوحة من الجهة الشمالية على ساحة القصر، ودكاكين الجهة الغربية تبيع الملابس الرخيصة الثمن، بالإضافة إلى القهوة والهال والبخور.

أما الجهة الشرقية فتباع فيها أغراض البادية وبيوت الشعر، والجهة الجنوبية تغير نوع البضاعة المعروضة فيها، فبدل تجارة الأسلحة والعطورات والبخور كما هي الحال الآن، كانت سابقاً سوقاً لتجارة الحبوب بجميع أنواعه (القمح – الشعير – الجريش – الذرة الصفراء - وأنواع البذور).

وسط الجردة هو بيت القصيد وهو الأهم لأنه سوق للإبل والأغنام ومن هذا السوق (أعني سوق الإبل) اكتسبت الجردة أهميتها وأصبحت تُعرف بأنها أكبر سوق بالعالم لتجارة الإبل.

أمام الجهة الغربية من الساحة كانت تقف سيارات أهل القرى القادمين للبيع والشراء في هذا السوق، لكل قرية سيارتها الخاصة بها ويسمونها «البريد»، يأتون في الصباح والمساء بأجر معلوم يدفعه الراكب لصاحب السيارة وأحياناً يكون لكل قريتين أو ثلاث بريد واحد فقط، وما زلت أتذكر أهل القرى وهم يصعدون إلى بريدهم محملين بالخبز الرخيص الثمن الذي يجلبه الخبازون إلى الجردة مساءً لبيعه قبل فوات تاريخه، يضعونه في علب من الكرتون كبيرة هي علب «التتن» الذي كان الخبازون يبيعونه في ذلك الوقت، والخبازون الذين يمارسون مهنة الخبز كانوا من الإخوة اليمنيين ما عدا قلة قليلة من أهل البلد الذين استمروا يمارسون هذه المهنة قبل قدوم أهل اليمن.

من هذا السوق كانت تنطلق القوافل إلى الأسواق التي ذكرتها في الشام والعراق ومصر، يبيعون جمالهم ويشترون بأموالها كل أصناف البضائع، من المواد الغذائية إلى الملابس، يعودون بعد أربعة أو خمسة أشهر، وبعضهم لا يعود أبداً، إما لأن الحياة أغرته هناك، أو لأنه قُتل في الطريق دفاعاً عن أمواله من قطاع الطرق الذي يترصدونهم، والعودة يحددها الربح أو الخسارة، فيعودون فرحين أو مهمومين، يكسبون أحياناً ويخسرون أحايين أخرى، بعد عام السبعين هجرية أي عام 1370هـ/1950م، توقفت الحملات تقريباً، إما لكون المملكة أصبحت تستوعب تلك الإبل بسبب تحسن الأوضاع المعيشية بعد إنتاج النفط، أو لوجود السيارات التي أصبحت تعمل بدائلَ عن الإبل في نقل البضائع، لهذين السببين – في ما أرى- توقفت الحملات نهائياً.

كُنت أتذكر أبناء البادية وهم يجلبون إبلهم إلى السوق بالعشرات وأتذكر أشكالهم الجميلة، وأتذكر أيضاً تلك الجدائل الطويلة التي تتدلى على أكتافهم وملامحهم الحازمة وتلك الأسلحة البيضاء التي يتمنطقون بها، يأتون إلى الجردة يبيعون جمالهم وأغنامهم ويستبدلونها ببضائع أخرى، كالتمر والقمح، يسيرون جماعات وهم ملتحمون مع بعضهم بعضاً متماسكين ومتحفزين لردة الفعل، كيف لا و قد وصلوا إلى مكان جديد وحياة صاخبة وأشكال من الناس لم يعتادوا عليها بالصحراء، حتى إبلهم تصبح ردات فعلها عنيفة عندما تسمع الأصوات وتشاهد الحركة الكثيرة، وأشد ما تفزعها أصوات السيارات التي لم تعتد عليها، فعند دخولها السوق تحدث معركةً صاخبةً والعصي تأخذ دورها في قمع تمردها، وكثيراً ما تحدث كوارث

للناس مثل ما تفعله حوادث السيارات في الوقت الحاضر، ولا يمكن لأي شخص من هؤلاء أن يبيع نوقه حتى يأتي بشخص يُعرِّف عليه وإذا لم يجد هذا الشخص فيستحيل بيعها، هذا نظام وضعته الدولة في ذلك الوقت حفاظاً على الأمن وسيادة النظام، إذا أدركنا أنه في ذلك الوقت كانت الدولة تعمل على بسط الأمن وكان شغلها الشاغل وذلك في بداية التأسيس، وهي تحاول القضاء التام على الغارات التي تحدث لعابري الصحراء.

أتذكر شخصاً حاول اختراق هذا النظام، وقد اشترى جملاً من صاحبه الذي جلبه إلى السوق بلا مُعرِّف، وقد حكم عليه القضاء بخمسين جلدة والتغريب لمدة سنة إلى مدينة عنيزة، إذا حكم القاضي. وكانت مدينة عنيزة بلدَ التغريب إذا حكم القاضي على شخص ما بهذا الحكم، كل الغرباء الذين يأتون للبيع أو الشراء فإنهم ينامون في الجردة ويطبخون ويأكلون فيها، ونيرانهم كعيون الجن منتشرةٌ في كل مكان من الجردة، منظر جميل لا يمكن نسيانه أبداً.

جُلب إلى السوق مرةً شخص وابنه قد قُطعت أيديهما وأرجلهما من خلاف، لأنهما رفضا الاستجابة لقرار الدولة بمنع السلب والنهب والغارات على المارين بالصحراء، واستمرا يمارسان هذه العادة لأنهما يعتبرانها من البطولات والأعمال المجيدة التي يجب المحافظة عليها ولأنهما يعتبرانها قانوناً من قوانين الصحراء التي يجب عدم التنازل عنها، الغريب في الأمر أن هذا الشخص كان يقول الشعر بصوتٍ عالٍ أثناء تنفيذ الحكم ويمقت الزمن الذي جعل هذه

العادة جريمة يجب عقاب من يمارسها، كان يفتخر ببطولاته السابقة السلب والنهب الذي كان يمارسه ويعدد الصناديد والفرسان الذين قتلهم في ساحة الوغى ونهب أموالهم وجمالهم، ويعيب على الناس تركهم هذه العادة.

في الوسط بين الأغنام والجمال كانت تُفرش سجادة عظيمة ومحترمة يجلس عليها شيخ مهيب يحترمه الجميع اسمه (عبدالله الموسى العضيب) ويدعى أحياناً «ابن موسى» اختصاراً، والد الاستاذ «موسى العضيب» رحمه الله مدير المعهد العلمي سابقاً، تُفرش له السجادة في الصباح والمساء، يقضي بين الناس ويحل مشاكلهم ويوفق بين الخصمين، سواءً بسبب خلافات في البيع والشراء أو خلافات أسرية، ويعتبر محكمةً أولية، وحكمه غير ملزم ولكن أكثر الناس يلتزم به، ويشبه إلى حدٍ ما «إصلاح ذات البين»، ورث هذه المهنة عن والده رحمه الله، ويقوم بممارسة هذا العمل بلا مقابل وإنما تبرعاً منه، كثيراً ما تعرض رحمه الله لهجمات الإبل ولكنه بقي مصراً على الجلوس في الوسط ليكون كالعلم الذي يسترشد به الناس، حتى ابنه موسى لعب دوراً مهماً في خدمة البلد قبل أن يتوفاه الله رحمهم الله جميعاً على ما قدموه لوطنهم من خدمات جليلة.

كان منظر السوق ممتعاً وخلاباً للزائرين أو لمن أراد أن يقضي وقت فراغه بالتجول، كل البيع والشراء يحدث بأصوات عالية وتختلط بأصوات الأغنام والجمال الخائفة التي تحاول العودة إلى مراعيها، والغرباء والقادمون من الصحراء يشدونك لمشاهدة

تحركاتهم الحذرة والمتحفزة، وتلك الجدائل الطويلة وهي تتدلى من على أكتاف الرجال المدججين بالسلاح يسيرون جماعات إلى أشغالهم التي جاؤوا من أجلها.

تنتاب الإبل صولات وجولات عندما تُشاهد معالم المدينة، وتقترب من ضوضاء الناس والسيارات، فيحدث لها نوع من الهستيريا العنيفة وردات الفعل الرافضة لأنها جُلبت من صحراء هادئة ولم تعتد على هذا الجو الذي لا يناسبها والغريب عليها، بعضها يحاول الهروب والعودة إلى دياره بالقوة ولو أدى ذلك إلى التدمير ودهس الناس، والحوادث التي تقع بالجردة تشبه إلى حدٍ ما حوادث السيارات في هذا الزمن.

في الجردة فرقة من الناس مدربون على العودة بالناقة إذا هربت حتى ولو هربت إلى مسافةٍ بعيدة، يمتازون بسرعة العدو، وهناك فرقة أخرى مدربة على عقل الناقة وعزل النوق بعضها عن بعض عند انتهاء البيع والشراء وكل هذا بأجر معلوم يدفعه صاحب الناقة، ومنهم أيضاً المتخصص في طرح الناقة أرضاً عند عقلها وهذا يمتاز بقوةٍ خارقةٍ وعضلات مشدودة.

في سوق الإبل أفراد موهوبون بالحسابات يتجه إليهم البدو لعد نقودهم ومحاسبة المشتري، وإذا علمنا أنه في السبعينات الهجرية كان الناس يتداولون النقود بالقطع المعدنية ذاتها التي تُحمل بالأكياس والتنك، فلابد لنا أن ندرك صعوبة عدها وتحميلها وسهولة فقدانها

إذا سقطت على الأرض وخاصةً إذا كانت الأرض رملية يختفي فيها كل شيء، وبعد الظهر يأتي بعض الأطفال لحرث الأرض طول ساحة الجردة لعلهم يعثرون على أية قطعةٍ نقدية.

أتذكر أنني عثرت على قطعة تساوي قرشاً واحداً، بعد البحث والعناء وقلب الأرض عاليها سافلها، وكانت تلك القطعة التي مازلت أتذكرها يعلوها الصدأ من طول المدة وتوالي السيول عليها وبول الإبل المتكرر، فذهبت بها إلى البيت فرحاً وبدأت أدعكها بالماء طوال ذلك المساء حتى بانت معلمها، كانت من ذكريات الطفولة التي حفرت في ذاكرتي حتى الآن.

بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع يقام الحراج على الحمير والبقر.

والحمير وسيلة من وسائل الركوب وحمل الأثاث وجلب المحاصيل الزراعية من القرى والحقول المجاورة، وكانت تستخدم كما تستخدم السيارات في هذا الوقت لا تخلو مزرعة من حمار أو حمارين أو ثلاثة، وتعتبر من الوسائل الزراعية التي لاغنى للفلاحين عنها، كما أن المدينة تحتاج إلى الحمير لنقل المشتريات الثقيلة، استفاد منها طبقة من الحمالين شيباً وشباباً وأصبحت مصدراً رئيساً لمعيشتهم واشتهروا بها، لا بل اشتهرت عوائل كثيرة بممارسة هذه المهنة.

لك الآن أن تتصور كمية الحمير التي يحتاجها الناس والتي تُجلب إلى هذا السوق للبيع.

والحمير ثلاثة أنواع:

1- **الهكيري**: أو حمار «الهكر» كما يسمونه، لونه أسود وهذا يصلح قائداً لرعاية الأغنام، وزبائنه الرعاة وأهل الأغنام، يركبه الراعي ويمشي أمام الغنم، ويتبعه الكلب وخروف المرياع الذي تتبعه الغنم أينما سار.

2- **الحمار العادي:** لونه أبيض متوسط الحجم «نقل خصوصي» تُحمل البضائع والمحصولات الزراعية على ظهره مباشرةً، وهذا النوع من الحمير مظلوم ومضطهد، لأنه يحمل البرسيم من الحقل أو القرية على ظهره ولا يستطيع أن يتمتع بأكل ولا حزمة صغيرة منه لأن فمه مكمم بالأسلاك الحديدية بحيث لا يمد رأسه ويأكل مما يحمله، يضربه الناس مثلاً لبعض الأشخاص ويقولون: «مثل حمار العلف يحمله ولا يذوقه»، وهو يضرب مثلاً للأشخاص الذين لا يتمتعون بما معهم.

3- **الحمار الحساوي:** وهو حمار كبير الحجم ضخم الجثة، قريب الشبه بالحصان، يستخدم في جر العربات المصنوعة من الخشب ذات عجلتين، بحجم عجلات السيارة. وهذا النوع يسمى «نقل عام» ينقل البضائع والأكياس الضخمة التي لا يستطيع نقلها الحمار العادي.

يوضع على العربة الخشبية لوحة صغيرة تحمل كلمة «نقل عام» ورقم خاص بها صادر من هيئة الأمر بالمعروف، ويدفع صاحب العربة ضريبةً سنوية لهيئة الأمر بالمعروف عندما تقوم الهيئة بوضع نقاط تفتيش بتقاطعات الطرق، كانت بديلاً للبلدية والمرور وتقوم بنفس الدور التي تقوم به البلدية وشرطة والمرور والمباحث ومكافحة الخمور والتتن والمخدرات والتهريب والدعارة والمباحث العامة وإن شئت مكافحة الإرهاب والسرقات، لأنها كانت في ذلك هي الكل بالكل وذلك لأن جميع تلك الأجهزة لم تُنشأ في مدينة بريدة، وإذا أردت أن تُبالغ أيضاً في كثرة المهام التي تقوم بها فالاستخبارات المركزية، والإنذار المبكر، ومراقبة التيارات الفكرية القومية والبعثية والماركسية والليبرالية والعلمانية، إنها جهاز متكامل لا يمكن الاستهانة به في ذلك الوقت، وتقوم أيضاً بإصدار التصريحات لأصحاب الدراجات الهوائية(السياكل) بركوبها وبخاصةً للشباب البعيدين عن أماكن الدراسة والاستعانة بها للوصول إلى مدارسهم ومداهمة «الزكرت» الذين يسهرون ليلاً وتأديبهم وأخذ التعهدات الصارمة عليهم بأداء صلاة الفجر بلا تأخير.

والبقرة في ذلك الزمن تعتبر أم العائلة، ولا يمكن أن يخلو بيت أو مزرعة من بقرة، لأن اللبن والتمر هما وجبة الغداء الرئيسة، وبعض الفقراء الذين لا يملكون بقرة يستعيضون عن اللبن بالماء مع التمر، ولكن الناس والجيران متضامنون مع بعضهم بعضاً، فمن يملك لبناً زائداً يهدي من لا يملك، ولك أن تتصور كمية الأبقار التي يحتاج إليها الناس، فالسوق يشهد حركة كبيرة في البيع والشراء.

وكلما توفرت الشروط والمزايا في البقرة ارتفع سعرها، والشروط والعيوب تُقال بصوتٍ مرتفع من قبل السمسار، ولا يمكن للشاري أن يدفع إلا العربون وبقية المبلغ يدفعه المشتري بعد التجربة والفحص.

والمزايا التي يجب أن تتمتع بها البقرة الجيدة، هي الهدوء عند الحلب، وعدم رضع نفسها، وأن تعطي الحليب بلا (بخشيش) أثناء الحلب: (أن لاترفع اللبن)، وأن تكون كمية الحليب نفسَها التي ذكرها السمسار في أثناء العرض، وإذا توفرت هذه الشروط جميعها فإن المشتري يدفع الثمن إذا انتهت الفترة المتفق عليها للفحص، و(البخشيش) يسميه الناس «الأوقافة» وهو أيّ نوع من مخلفات الأطعمة التي تتوفر بالبيت.

والحمار أيضاً له شروط ومزايا يجب أن تقال بصوتٍ مرتفع أمام الزبائن، وكلما توفرت المزايا ارتفع السعر، ومزايا الحمار هي: لا يعض، ولا يركل، ويتمتع بالأخلاق الحميدة، ويتمتع أيضاً بالسرعة والقوة، ويستجيب لأي أمر من صاحبه، ولا يحتج أو يعترض أو يبدي انزعاجه بكثرة النهيق التي تؤذي الجيران.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر «الزبدة» التي تنتجها البقرة، لأنها الوسيلة الوحيدة لدهن المعدة وتدسيم الشوارب، يرغبها الناس عوضاً عن اللحم الذي لا يستطيعون الحصول عليه إلا القادر على ذلك، وهؤلاء قليل في الناس، يعدون بالأصابع، واللحوم لا يشمها الناس

إلا في مناسبات الأعراس أو في عيد الأضحى فقط، لذلك تعتبر الزبدة الوسيلة الوحيدة للتعويض. والبقرة التي تعطي زبدة ذات حجم كبير تعتبر مطلباً للناس لا يمكن الاستهانة به، وتعتبر من النعم النادرة، وتوارى عن الأنظار خوفاً عليها من عين الحسود، ولا يمكن أن يصرح بهذه المزية علانية أمام الناس وإنما يُسرُّ بها إسراراً وبصوتٍ خافت.

بعض الأحداث التي وقعت في الجردة:

1- خرج من الجردة أول مفرزة من المتطوعين لحرب فلسطين عام 1948م يحملون علم المملكة وبجانبه علم القصيم ذي اللون الوردي المثلث الشكل، ذي اللسان الطويل من القماش نفسه، خرجت هذه المفرزة ودخلت الحرب وحاربت بشراسة ضد العدو الصهيوني ولم يعد من أفرادها إلا القليل وسقطوا شهداء دفاعاً عن أرض فلسطين الحبيبة.

2- خرج من الجردة أيضاً أول جيش لأهل القصيم يحمل العلم ذاته مشاركاً في الجيش السعودي لحرب اليمن الشهيرة بقيادة «حمود المشيقح» على ما سمعت، ويقولون: إنه أول جيش اقتحم عقبة اليمن الشهيرة التي تعتبر عقبةً أيضاً أمام الجيش السعودي.

3- خرجت من الجردة قافلة المؤيدين والمعارضين لمدارس البنات في يوم واحد يسيرون بالسيارات متجهين إلى الرياض في موكب واحد، يتوقفون معاً ويأكلون ويشربون معاً ويتحدثون مع بعضهم بعضاً، وقد استقبلهم جلالة الملك فيصل جميعاً وتحدث إليهم معاً وسمع منهم

جميعاً وعادوا في الموكب نفسه بمشهد عظيم وقد استقبلهم الناس عند العودة بطريقة تعبر عن روح الديمقراطية السائدة في ذلك الوقت، بلا تكفير أو إقصاء أو مصادرة للرأي، والكل محترمون عند الناس.

4- من الجردة غادرت قافلة من سيارات الحكومة وهي تحمل الطلبة خريجي الابتدائية وهم مخفورون من رجال الأمن لإجبارهم بالقوة على الدراسة بالمعاهد العليا التي فتحتها الدولة في ذلك الوقت مثل دار التوحيد بمكة وكلية الشريعة واللغة العربية بمكة أيضاً، وحدث هذا في الستينات الهجرية وهذه أول مدارس عليا تفتحها الدولة بعد الابتدائية في عهد الملك عبدالعزيز يرحمه الله، وكانت الدولة تحتاج رجالاً متعلمين لجميع الوظائف التي تحتاجها أجهزتها، وكانت فكرة الناس في ذلك الوقت تدور حول إشاعة مفادها أن الدولة سوف تستحوذ على الشباب المتعلمين لتجنيدهم للقتال في فلسطين لأنهم ذاقوا مرارة التجربة عام 1948م، لذلك هربوا بأولادهم الخريجين إلى القرى المجاورة بعيداً عن أعين الدولة، ولكم أن تتصوروا فكرة التحديث التي سار عليها الملك عبدالعزيز والملك سعود والملك فيصل رحمهم الله، هذا التحديث الذي أزعج الناس كثيراً لأنه أفكار لم يعتادوا عليها من قبل، ولكن لم يكد يمر على هذه الحادثة ست أو سبع سنين، إلا والناس يتفاخرون بأن كل بيت تقريباً فيه شاب مبتعث إلى الولايات المتحدة أو بريطانيا للدراسات العليا.

5- عام 1376هـ/1956م في سنة الهدام المعروفة انطلقت من الجردة أول مظاهرة تحدث بالمملكة، لها مطالب متعددة غير

منظمة تضم ثقافات متعددة وتختلف مطالبهم، وغالبيتها حول شؤون الشباب سأفرد لها حلقة مستقلة وخاصة إن أمكن ذلك في الأيام المقبلة، وسوف أجعلها على شكل دراسة عن هذه الظاهرة الفريدة.

6- في عام 1379هـ/1959م، أقيم للملك سعود احتفال صغير، قام به مجموعة من دلالي السيارات وكان هذا بعد العصر، وانتهى الحفل بعد ساعةٍ من إقامته، واكتفى الملك سعود بفنجان قهوة وممارسة العرضة النجدية، ولم يكن هو الاحتفال الرسمي لأهالي بريدة الذي أقيم جنوب المطار القديم، وإنما كان استجابة لدعوةٍ من ضمن دعوات كثيرة استجاب لها الملك سعود، ومن ضمنها أيضاً دعوة قام بها الجزارون «القصاصيب» بالمقصب القديم وهو سوق الذهب الحالي، ومن ضمنها أيضاً دعوة ابن سيف ذلك الرجل البسيط الذي أقام احتفاله بسطح البيت وشرب الملك سعود قهوته، وعرضة بسيطة كاد السطح بسببها أن يسقط.

إنها أيام جميلة وبسيطة، مازلت أسمع تلك الموسيقى العسكرية الصاخبة التي تجوب شوارع المدينة ونحن نكاد نجن من الفرحة والسعادة، التي اعترتنا ونحن نحتفل كل يومٍ في مكان ترحيباً بزيارة الملك سعود رحمه الله.

من ضمن الذكريات التي لا أنساها؛ وقوف العروس الشاب(العريس) بالجردة بمعية والده وهو مرتدياً المشلح لأجل أن يسلم عليه الناس ويباركوا له، كما أن الجردة هي المكان الوحيد الذي

يذهب إليه الناس لدعوة الآخرين للمناسبات، وذلك لأن الجردة هي المكان الرئيس الذي يمر منه الناس كل يوم.

في الجردة تنفذ العقوبات جميعها للرجال فقط، أما النساء فتنفذ فيهن العقوبات في قبة رشيد وبالجانب الذي يخص النساء.

كل العقوبات تنفذ بعد العصر ما عدا العقوبات الكبرى التي تنفذ بعد صلاة الجمعة مباشرة. الجلد سابقاً كان ينفذ بواسطة عسيب النخل القاسي بعدما ينقع بالماء لعدة أيام حتى يكون عذابه شديداً، ولكن في الآونة الأخيرة اُستبدل بعصيّ الخيزران.



Twitter: @ketab_n

بائع المخُزي

اقتادوه إلى ساحة الجردة يسحبونه بطرف غترته المربوطة في عنقه.

أمعنت النظر في وجهه المتجهم ومعالم الرعب والخوف ترسم آثارها وخطوطها على وجهه، وعيناه الزائغتان تدلان على مدى الخوف الذي يعتريه، دار بصره حول الجماهير الغفيرة التي توافدت إلى الساحة وهي ترميه بنظرات ثاقبة ومتوجسة.

توافد الناس من كل الاتجاهات واكتظت الساحة بالمشاهدين حتى سطوح الدكاكين امتلأت بالمتسلقين، وبدأت الطرقات الضيقة المؤدية إلى الجردة تتدفق بالأفراد الذين جاؤوا على عجل، الأطفال والشباب، وبعض النساء الفضوليات يتخذن مواقع لهن ويسألن عن الحدث والحكاية بكل تفاصيلها.

«عبده الخباز» هو الضحية وهو الذي جنى على نفسه وهو الذي تخطى العُرف والقانون وقام ببيع التتن في مخبزه بطريقة سرية، حتى عثر عليه رجال هيئة الأمر «النواب» وقبضوا عليه بالجرم المشهود، وأحيل إلى القضاء، وحكم عليه القاضي بثمانين جلدة وتغريبه

أو تهجيره إلى بلده الأصلي «اليمن» الذي جاء منه، ردعاً له وتأديباً لأمثاله، لأن ترويج «المخزي» أو شربه يعتبر جريمة تُعرّض صاحبها إلى العقاب.

اكتمل توافد اللجان المنوط بها تنفيذ العقاب، والتي تتكون من النواب بصفة مشرف على التنفيذ، ورجال الأمير «الخوياء» الذين ينفذون العقوبة.

كنت من بين المتفرجين على هذا المشهد الدرامي وهو يتحرك بكل تفاصيله.

مشهد حزين وكئيب ومخيف الوقت نفسه، (وعبده) المسكين كان يقف بالوسط وهو يرتجف كدجاجة أخذت دشاً بارداً في زمهرير شتاء، فجأةً ساد الصمت والهدوء بين المتفرجين عندما تقدم قارئ البيان ليلقي بيانه الصادر من المحكمة الشرعية والمصادق عليه من قبل رئيس المحكمة.

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هذا الواقف أمامكم اقترف جريمة بيع «المخُزي» ولذلك حكمت عليه المحكمة بثمانين جلدة وطرده من حيث أتى ردعاً له وتأديباً لأمثاله الذين يحاولون هدم الأخلاق وهدم القيم الإسلامية في بلادنا والتعدي على عادات المجتمع وأعرافه» .... جذبوه من ربطة عنقه ومدوه على الأرض، ثم جثا رجل الإمارة فوق رأسه كما جثا آخر فوق

رجليه وشدوه جيداً حتى كاد ينفصل إلى جزئين، وتقدم رجلان آخران يحمل كل منهما عصا غليظة، وقف أحدهما مستعداً عن يمينه ووقف الآخر عن يساره، وبدأت العصي تتهاوى على مؤخرة عبده كصورايخ وتحاول أن تخترق لحمه وتمزقه إرباً، حاول أن ينهض بقوة ولكن شدة الضغط من أولئك الذين يجثون على جسده جعلت كل محاولاته التي قام بها يائسة، كل الجماهير أصابها الوجوم والذهول والألم من تلك العصي التي تتهاوى على مؤخرة عبده ومن تلك الصرخات المستغيثة التي تنطلق من فمه ولا مجيب، وما كاد رجال الأمير يبدؤون بالجلدات الأولى حتى توقفوا فجأةً، وقام أحد الرجال بتفحص جسد عبده ثم أدخل يده من تحت الملابس وجذب وسادةً من فوق مؤخرته، وأفشلوا مخططه، والآن وقد أصبح عبده عارياً تماماً ما عدا ذلك الثوب البالي الذي يلف جسده.

بدأ العد من جديد ولكن هذه المرة كانت عنيفة وبلا حجاب أو واقي يحمي مؤخرته مما جعل عبده يطلق صرخات اخترقت قلوب المتفرجين وأغلبهم أصبح حزيناً وكئيباً، وقبل نهاية الضربات بقليل سكن عبده ولم يعد يتحرك، وأصبح كجثة هامدة، توقفت الحركات والاهتزازات وظهرت على ملابسه بقع الدم «وأشياء رطبة لا داعي لذكرها» وفي النهاية فقد وعيه عندما توقف الجلد، ثم سحبوه إلى قربة ماء كانت بالموقع ثم رشوا جسده ووجهه حتى تحرك وبدأت معالم الحياة تعود إليه، ثم ركنوه في زاوية من زوايا الساحة يتضرج بدمه. تحرك الجماهير وأحدثوا فجوةً بينهم دخلت منها عربة يجرها حمار يحمل بضاعة عبده وهي كمية كبيرة من كراتين « التتن» بعد ذلك قام

رجال الهيئة بإنزال الحمولة ووضعوها على الأرض بشكل كومة كبيرة ثم أشعلوا فيها النار، كنت أشاهد ألسنة النيران وهي تلتهم البضاعة، وانتشر الدخان وعمت رائحته أرجاء المدينة.

كُنت في الثالثة عشرة من العمر، وكنت من بين المتفرجين وشاهدت الحكاية بكل تفاصيلها أصبحت محتاراً بين مشهدين، مشهد ذلك الضعيف وهو يعاني العذاب، ومشهد الكبار وهم يهللون ويكبرون، ولكن السؤال الذين كان يدور في ذهني بعد ذلك بسنوات هو

لماذا يجلد عبده في بريدة ويترك آخر في مواقع أخرى ومدن أخرى بالمملكة يمارس هذه المهنة بحرية تامة وبلا عقاب ينتظره؟

. ثم ما الذي جعل التتن مكروهاً في هذا المجتمع بينما في مدن أخرى لا توجد تلك الحساسية الزائدة عن اللزوم؟

ولكن هل يوجد في بريدة ناسُ مدخنون وبائعون آخرون غير الخبازين يمارسون بيعه بعيداً عن أعين الرقباء؟

ولكن أيضاً هل جميع المدخنين مرفوضون من المجتمع؟

هذه الأسئلة وغيرها يستحيل الإجابة عنها بسهولة إلا لشخص يعرف جيداً تفاصيل هذا المجتمع المحافظ ولكنه محافظ من جهة ومنفتح من جهة أخرى، وإن كنت أتكلم عن موقف المجتمع فأنا أعني مجتمع ذلك الزمن الذي ترعرعت فيه ولا أقصد مجتمع هذه

المرحلة التي نعيشها الآن حيث اختلط الحابل بالنابل.

وصارت بريدة ليست هي بريدة التي كنا نعرفها بمرحلة السبعينات والثمانينات من القرن الهجري المنصرم، لقد تغيرت فيها المفاهيمن فما كان ممقوتاً في ذلك الزمن صارمتسامحاً فيه الآن، ولم تعد بريدة تختلف عن مثيلاتها، لا بل بدأت تتغير بسرعة وتُحرق المراحل أكثر من غيرها.



Twitter: @ketab_n

الوسعة

في هذه الساحة عُلق رأس الخصم مدة ثلاثة أيام بلياليهن، وأصبح هذا الرأس هو المسافة الفاصلة بين أفول دولة وبزوغ دولة أخرى جديدة، وبانت معالم وخطوط عريضة لدولة اسمها (المملكة العربية السعودية).

يرددون دائماً في مجالسهم في الزمن الأول (من ملك القصيم ملك نجد كلها) (وأنها مفتاح الشمال والجنوب).

والوسعة هي السوق الثاني لبريدة قبل رحيلهم إلى السوق الثالث الجردة عام 1340هـ/1921م وتشبه في تصميمها ساحة الجردة إلى حد ما، ولو أنها أصغر منها بكثير، وأكبر من السوق الأول الذي هو حالياً سوق الذهب، «والمقصب» قبل ذلك، والذي يقع الآن مقابل الباب الجنوبي لمسجد الملك فهد، يفصلهما عن بعضهما شارع الملك فيصل.

والوسعة انمحت بعد توسعة الجامع من الجهة الشمالية، وقد حصل لها تغيرات كثيرة وتقلصات من هنا وهناك حتى أصبحت كما كنا نعرفها سوقاً ثانوياً صغيراً.

في عهد (محمد العبد الله الرشيد) تم توسعة الجامع وانتزع من الوسعة شارعها الذي يربطها بالسوق الأول، والتوسعة الأخرى للجامع عام 1379هـ/1959م في عهد الملك سعود عندما تضرر المسجد من السيول التي سقطت سنة «الهدام» عام 1376هـ1956م وانتزع من الوسعة جهتها الجنوبية وأدخلت ضمن الجامع من الشمال، ثم هذه الأخيرة التي جاءت في عهد الملك فهد رحمه الله حيث أتت على الوسعة كلها ولم يبق إلا ذكرياتها المجيدة، ولكننا كسبنا جامعاً عملاقاً يعتبر أكبر صرح في بريدة.

لا تسعفنا الكتب ولا الحكايات الشفهية عمَن بناه، أهم ما ذكرته تلك الكتب أن الذي قام بالتوسعة الأولى هو «محمد العبد الله الرشيد» ما بين عام 1308هـ/1890م حتى عام 1318هـ/1900م وهذه هي المدة التي حكم فيها نجداً.

كانت بريدة القديمة وقبل تطورها واتساعها في عهد «حجيلان بن حمد» لا تعرف مسجداً سوى مسجد ناصر الذي يقع على طريق الصباخ وهذا الطريق ينطلق من قبة رشيد وبعد ثلاثين متراً يقع المسجد على الجانب الأيسر للمتجه جنوباً ولكن المسجد وطريق الصباخ القديم ذهبا توسعة لسوق الخضار، أغرب شيء في هذا

المسجد أن منارته تقع في البيت المجاور له من الجنوب، وهذه مزية غريبة لا يوجد مثلها في المساجد، ولهذه المنارة قصة غريبة لا يسعنا المجال لذكرها.

نعود إلى موضوعنا وأقول: إن ضخامة المسجد الجامع ليست إلا دليلاً على أنه شيد في عهد مزدهر وتوسع شاملٍ شهدته المدينة، ولا نعرف لبريدة عهداً زاهراً في الأزمان الغابِرة إلاّ عهد «حجيلان بن حمد» رمز المدينة وفارسها المشهور الذي استطاع أن يتحالف مع الدولة السعودية الأولى ويتضامن مع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، واستطاع أن يحكم من خلال هذا التحالف شمالي نجد كلها حتى جبل حوران بالشام، وهذا هو التاريخ يمدنا بمعلومات خطيرة عن هذا الحاكم العظيم الذي استطاع بمدة حكمه أن يترك لنا مدينة تضاعفت عشرات المرات وأصبحت الحاجة ملحة لبناء جامع كبيرٍ يستوعب السكان الذي تضاعف عددهم إلى الحد الذي جعل بريدة في عهده تستوعب كل المهاجرين إليها وتفتح المجال لهم ليمارسوا ما يرغبون من عمل وهذا هو سر نجاحها الآن، والتطور السريع الذي نشاهده ومقدرة هذه المدينة العجيبة على تبني المهاجرين ودعمهم، إنها سياسة هذا العظيم التي ورثناها نحن وتداولناها عبر القرون التي مرت علينا.

هذا ما أراه وأرجو من الأخوة الكرام من لديه أية قرينة تؤدي بنا إلى مؤسس هذا الجامع أن يمدنا بها ولو بالردود.

كذلك الوسعة أصبحت سوقاً تجارياً بزمن ذلك العظيم عندما عجز السوق الأول عن استيعاب البضائع والإبل التي ترد إليه.

كانت الوسعة التي نعرفها ووعيناها أخيراً سوقاً شبه مختلط بين النساء والرجال لا يفصل بينهما إلا طريق ضيق طوله متران، تُباع فيها الأواني المنزلية وأغراض النساء من أعشاب وأدوية شعبية وملابس، وكانت تضج بالباعة والمتسوقين من كلا الجنسين والأصوات المرتفعة فيه خليط بين الصوت الناعم والخشن والكل يمارس تجارته بحرية تامة.

يتفرع من الوسعة طريق من الزاوية الجنوبية الشرقية يتجه إلى الجردة بمحاذاة الجامع وتقع عليه دكاكين أصحاب الأواني المعدنية، كما يتفرع منها طريق آخر من الناحية الشمالية الغربية منطلقاً إلى سوق «الصنانيع» وبمحاذاته تماماً ينفذ طريق ضيق يؤدي إلى سوق النساء طوله متران بعرض ثمانين سنتيمتراً، تنطلق منه طريق أخرى من الناحية الجنوبية الغربية بمحاذاة محراب المسجد متجهة إلى سوق بريدة الأول سوق «القصاصيب»، وتقع عليه دكاكين باعة الأقمشة النسائية كما يتفرع من هذه الطريق إلى اليمين سوق لصاغة الذهب يتجه شمالاً ويقترن بالنهاية بسوق النساء، وكل هذه الطرقات والأسواق الفرعية التي تنطلق من الوسعة تبدأ ضيقة ثم تأخذ بالاتساع في الوسط ثم تعود ضيقة في النهاية، وذلك لأسباب أمنية وعسكرية لأن هذه الطريقة تساعد الناس على حماية البلدة عندما تجتاحها القوات الغازية.

سوق النساء الذي ينطلق من الوسعة متجهاً إلى الغرب تقريباً يعتبر هو السوق الأضخم للنساء، ليس لأن أكبر تجمع للنساء فيه، ولكن لأنه يحتوي على هوامير النساء الكبار «البزنسات» واللاتي يملكن تجارة ضخمة مثل أم محمد رحمها الله والتي سآتي على ذكر مآثرها، وهناك سوق آخر كبير وطويل يسمى «المبيعة» والذي التهمه سوق الخضار ولم يعد موجوداً الآن ينطلق من «قبة رشيد» إلى الغرب، تبيع فيه النساء أغراضاً متعددة كالملابس والأدوية والكراث وبواكير الخضرة مثل الشمام الأخضر الذي نسميه «الجرو» ولكنها بضائع صغيرة ويومية لا تقارن بتلك البضائع التي تباع بسوق النساء الأول، وكما ذكرت سابقاً، كل البضائع تعرضها النساء في زنابيل كبيرة، ويتم البيع فيها بالمكيال مثل الصاع وملحقاته الصغيرة «النصف، والمد، والربع» موازين اختفت الآن ولم نعد نشاهدها.

ما يميز سوق النساء عن سوق الرجال أن سوق النساء دائماً مغبر والرؤية فيه ضعيفة بسبب تلك الثياب التي تلبسها النساء والتي تسحب على الأرض بمسافة متر ونصف، وبما أن السوق غير مسفلت والرمال متحركة فإن هذه الثياب تثير الغبار ومع كثرة النساء اللاتي يجررن ثيابهن فالعواصف الترابية تخيم على المكان، زد على ذلك بقايا الأدوية الشعبية «المنتثرة» على الأرض وبخاصة الفلفل الأحمر نفاث الرائحة وبخاصة أيضاً فلفل الرس أو فلفل حائل المحُرق والذي يشبه الفلفل الصيني بقوةِ مفعوله، يسمونه «الحبحر»، ومن دخله من الرجال لا يستطيع الخروج منه بسلام من كثرة العطاس والتهاب العيون والدموع الكثيرة التي يذرفها الرجال ويصبحون في موقفٍ لا

يحسدون عليه وبخاصة الغرباء من أبناء البادية عندما يأتون لشراء حوائجهم.

بعض الناس شبه ثياب النساء الطويلة هذه «بمكنسة البلدية» لأنها تكنس وهي سائرة إلى بيتها كل القراطيس الملقاة بالطريق.

إن عواصف الغبار ورائحة «الحبحر» تعتبر تقريباً وسائل دفاع أولية لهذا السوق لمن تسول له نفسه ويتخطى هذا السوق بلا حاجة وإنما لإشباع شيء في نفسه.

حدثني شخص في مدينة الرياض قبل سنوات عندما علم أنني من سكان بريدة قال: زرت بريدة لأول مرةٍ وبما أنني وسيم الجسم وألبس ملابس مغرية وروائحي العطرية تنتشر في كل مكان، سولت لي نفسي في اليوم الذي وصلت فيه أن أذهب إلى هذا السوق لاستعراض هذا الجسم الوسيم أمام النساء لعل وعسى وبخاصةً أنني شاب في مقتبل العمر، وعندما دخلت إليه وبدأت أنظر هنا وهناك، وإذا بامرأة ضخمة الجسم تهجم علي وبيدها كوب من «الحبحر» وتنشره علِي وجهي بسرعة، قال: كم لك أن تتصور حالتي في هذا الموقف الذي لا أحسد عليه من العطاس الذي كادت روحي أن تخرج معه، وعيوني التي فقدت بصرها، والأصوات الغريبة التي بدأت تخرج من جسمي من هنا وهناك، وبعد أن شعرت أن روحي عادت إلي اتجهت مباشرةً إلى مواقف السيارات وركبت إلى الرياض ومن ساعتها لم تطأ قدمي مدينة بريدة.

أم محمد هامورة في هذا السوق وتعتبر من النساء العصاميات، إذ كونت نفسها من سمعتها الطيبة وأمانتها منقطعة النظير، فقد جمعت من هذا السوق مئات الألوف قبل حوالي ثلاثين سنة قبل الطفرة، وأصحاب المئات من الألوف في ذلك الوقت يعدون بالأصابع، قررت في حياتها أن توزع ثروتها التي جمعتها على أولادها قبل أن تموت، لها ولد واحد اسمه محمد ما زال حياً يرزق وصاحب تجارة كبيرة، ومجموعة بنات، وفعلاً نفذت رغبتها ووزعت ثروتها عليهم، وعادت إلى السوق من جديد لا تملك إلا سمعتها وأمانتها فقط، وجمعت مرةً أخرى ألوفاً أخرى ووزعتها من جديد على أبنائها قبل أن تموت بسنوات قليلة، هذه واحدة من عدة نساء ناجحات مارسن التجارة وتفوقن على الرجال وهناك قصص أخرى لنساء أخريات خرجن من هذا السوق والسوق الآخر، صرفن على أبنائهن وملكن العقارات والأراضي بهذه التجارة الصغيرة فما بالك لو ملكن الشركات والمؤسسات، إنه درس عميق لأجيالنا الصاعدة لعلها تسمع وتعي.

بقي لنا أن نذكر طريقاً أخرى تنفذ من الوسعة متجهة شمالاً، عرض هذا الشارع متران تقريباً ولكنه يتسع أيضاً في الوسط تقع عليه بيوت العائلة العظيمة «آل ربدي».

في عام 1379هـ/1959م كان الملك سعود رحمه الله بزيارة لمدينة بريدة لافتتاح الجامع وبعض المشاريع الأخرى، جاء إلى الوسعة لتلبية دعوةٍ من آل ربدي، جاء بسيارة واحدة فقط لتلبية الدعوة ولم يكن بحاجةٍ إلى موكب خاص ولا حماية، لأنه يدرك تماماً أنه بحماية

الناس وأنه في قلوبهم، كان سائق السيارة رجلاً من أهل بريدة يدعى «الذيب» والذيب هذا من عائلة «الذيب» أيضاً التي لا نعرف منها أحداً الآن لأنها هاجرت إلى الرياض، ولا نعرف إلا مزرعة كان يملكها على طريق الطرفية تسمى «عين الذيب» هذا ما بقي من تراث هذه العائلة. حاول «الذيب» أن يعبر بالسيارة من خلال هذا الطريق الضيق وأصر على ذلك على الرغم أن الملك سعود أشار عليه أن يوقفها بالوسعة ثم الذهاب إلى الدعوة مشياً على الأقدام، بعدها حصلت الكارثة، واستحالت السيارة بين الجدارين وقد حُشر الملك سعود و «الذيب» داخل السيارة وصار موقف «الذيب» لا يحسد عليه كما أن الموقف برمته أصبح محرجاً لكل الأطراف حتى الداعون أصابهم الذعر والارتباك لكن الجمهور اتخذوا القرار الحاسم، وقرروا سحب السيارة بالقوة، بعضهم تسلق السيارة ليذهب إلى الجهة الأمامية ليدفعها إلى الوسعة، وبعضهم الآخر وقف خلفها لسحبها وتمت المحاولة بنجاح وسُحبت السيارة إلى الوسعة، نزل الملك سعود غاضباً على السائق، ورفع يده إلى رأسه لتناول «الشطفة» التي تشبه العقال لمعاقبة السائق ولكن تراجع في النهاية وبدل معاقبة السائق رفع يده محيياً الجماهير، ولكن بعد مدة أصبح هذا السائق من كبار الموظفين في الدولة.

رحمك الله «يا أبا الشعب» كما أطلقها عليه الشعب السعودي.





سوق داحس والحي الدبلوماسي

أول ساحة عرفتها بريدة عند تأسيسها، وذلك في القرن العاشر الهجري، وأول سوق للبيع والشراء، من الإبل حتى البضائع الأخرى العادية، كان سوقاً قبل أن ينتقل السوق إلى الوسعة، ويعتبر هو وقبة رشيد النواة الأولى لمدينة بريدة، ويشبه إلى حدٍ ما الجردة والوسعة في طريقة تصميمه، فهو دكاكين تتخللها شوارعٌ ضيقة من الغرب والشرق، ومفتوح من الجنوب على قبة رشيد ومفتوح أيضاً من الشمال على شارع الملك فيصل ويواجه مباشرة الباب الجنوبي لجامع الملك فهد، لم يطرأ عليه أي تغيرات حتى الآن ما عدا تلك المظلة التي وضعت فوقه بعدما أصبح سوقاً للذهب.

تدرجت فيه الأسواق على مر العصور التي مضت، من سوق للإبل إلى مقصب إلى سوقٍ للبضائع النسائية إلى سوقٍ خالصٍ للذهب، وكنا ندركه وهو مقصبٌ ونعي كل الأحداث التي مرت عليه حتى تحول إلى سوقٍ للذهب، وانتقل «المقصب» إلى جانب من جوانب القصر قبل أن يذهب إلى سوق الخضار حالياً.

عندما تدخل إلى هذا السوق عن طريق شارع الملك فيصل وتمشي عدة خطوات ستجد طريقاً ضيقة إلى يمينك متجهة غرباً، هذا هو سوق «داحس» ويخترق هذا الطريق الحي الدبلوماسي لبريدة قبل قرونٍ مضت، لأن قصور الحكام والفرسان وعظماء البلد من عائلة «الأبوعليان» الذين أسسوا هذا البلدة، تقع عليه، وهذا الداحس الذي سمي الطريق باسمه لا نعرف عنه إلا ومضات قليلة، وبأنه أول جزارٍ من الرجال يمارس هذه المهنة، لأن هذه المهنة كانت في بريدة مهنة نساء ولا يمارسها الرجال، وكان داحس هذا يمارس المهنة في هذا الطريق الضيق، لذلك سمي باسمه، وتقول لنا الومضات التاريخية إن داحس قُتل خطأً في عراك قام بين بعض العائلات من الأبوعليان بسبب الصراع على الحكم، قالوا: إنه أخرج رأسه من النافذة «الزيتولة» في البيت الذي يسكنه فوق الدكان لاستطلاع هذه الضجة وإذا برصاصة طائشة تصيبه في رأسه ومات على الفور هذا كل شيء عن هذا الرجل الذي سمي الطريق باسمه، وكل بيوت السلطان التي كنا نتذكرها هي بيوت الأمراء والفرسان، والسلطان هم العرفج من أل أبو عليان ومنهم الشاعر الفارس «محمد العلي العرفج» الذي قُتل أيضاً في فم هذا الطريق ثأراً وختم هذا الفارس بموته جميع الثارات بين العائلات الحاكمة.

له أبيات عظيمة تعتبر من المعلقات التاريخية يصف فيها أهل بريدة بأنهم يتعاونون في السراء والضراء فيما بينهم قويهم يساعد ضعيفهم حتى عند شرب المياه في الموارد المائية التي يشربون منها في الصحراء حيث جرت العادة أن القوي هو الذي يجعل إبله

تشرب أولاً ثم دور إبل الضعيف وبهذه الأبيات يقول: إن أهل بريدة يعكسون النظرية ويتعاون قويهم مع ضعيفهم عند الوصول إلى موارد المياه يقول:

لي ديرة صوت الضحى عني أو أقرب

وأبعد من الأمصار شوي في خياله

دار بها اشرب يا شريبي وأنا أشرب

دارٍ تمنى شرب دمي ارجاله

قال هذه الأبيات وهو متوجه لاستلام إمارة الجوف بأوامر من الدولة السعودية الثانية.

هذا الفارس العظيم كان يسكن في هذا الطريق، هكذا جرت بي ذاكرتي، للحديث عن هذا الطريق الضيق، ومر أمام مخيلتي شريط لا ينتهي من الأيام الأولى، وكيف أن هذا الطريق الضيق المتفرع من المقصب يحمل في طياته تواريخ عظيمةً، وأحداثاً كالخيال رفضت أن تغادر خيالي حتى يكتمل سردها، فالتاريخ كله محفوظٌ هنا في «سوق داحس» وما هذه البيوت الصغيرة التي تنتشر على جوانبه إلا التاريخ نفسه مدفون في طياته، من راشد جدنا الأول مروراً بالعظام من آل أبو عليان حتى وصلنا إلى عهد عبد العزيز المحمد آل أبو عليان وهذا الحي الدبلوماسي الذي يخترقه «سوق داحس» يتحرك بالأحداث

العجيبة والغريبة؛ انتصارات دائمة وانكسارات دائمة وانقلابات دائمة تنبعث من هذا الطريق، ومئذنة مسجد ناصر ومئذنة الجامع أخيراً هي القنوات الإعلامية التي تبُث منها البيانات بصوتٍ عالٍ، يسمعها الناس كما يسمعون الأذان، يقول الأولون كما تقول لنا أيضاً بعض التواريخ المسجلة أنه أعُلن في يوم واحد من هذه المآذن أن الحكام تبدلوا: في الصباح حاكم جديد وفي نهاية المساء حاكم آخر قام بانقلاب على حاكم الصباح، والبيانات الانقلابية تتحرك بسرعة، كما أن أحداث المعارك والحروب تتجدد يومياً، رفض شريط الذكريات أن يتركني أتذكر أيامي وليالّي التي أعرفها عن المقصب قبل أن يسرد لي تاريخاً مهماً لشخصية نسائية عظيمة، فارسة بريدة الأولى، بل فارسة الجزيرة العربية بلا منازع وأول مُفجرة عربية عرفها التاريخ، وسوق داحس هذا يعرض لنا الحدث بكل تفاصيله عن هذه السيدة التي أعجبت فرسان العرب وشعراءهم وقالوا فيها الكثير من الأشعار. إنها الفارسة المشهورة

لولوة العرفج

هي زوجة حجيلان بن حمد أشهر أمراء بريدة والذي أسره إبراهيم باشا عندما زحف من مصر لحرب الدولة السعودية الأولى بأمر من الدولة العثمانية، أسره رهينة حتى لا ينتفض عليه أهل القصيم، لها ولد واحد اسمه عبدالله تولى الحكم بعد والده حجيلان الذي نفاه إبراهيم باشا إلى المدينة المنورة وكان صغير السن لم ينبت له شعر في وجهه ولكنه متزوج.

ذات ليلة من ليالي الصيف الحارة، كان عبدالله نائماً مع زوجته في سطح القصر الذي يقع في هذا الطريق، وبينما هذا الحاكم الصغير يغط في نوم عميق تسلق الانقلابيون - وهم من الأسرة الحاكمة نفسها- القصر وهجموا عليه محاولين قتله وإذ هم يختلفون بين الاثنين النائمين أيهما الزوجة وأيهما الزوج، فالشبه بين الاثنين واحد في الوجه وفي طول الشعر وكذلك في لون البشرة، ولما تشابه عليهم الأمر قتلوا الاثنين معاً، وبسرعة تسلّموا الحكم وأعلن من مئذنة المسجد البيان رقم واحد، ولكنهم نسوا أو تناسوا أن في البيت لبؤة تتحين الفرصة للانقضاض على فريستها، استمرت السيدة لؤلؤة العرفج هادئة ساكنة بلا ردة فعلٍ تجعلهم يشككون في نواياها واستمروا يمارسون حكمهم بكل طمأنينة، وما علموا أن هناك لبؤة متحفزة تتحين الفرصة المناسبة، ومع مرور الأيام والليالي وظناً منهم أن حجيلان ليس له ذرية تطالب بدمه تحركت اللبؤة من عرينها واتجهت مباشرةً لتنفيذ الخطة التي رسمتها جيداً.

كان في بيتها بقايا من أصابع الديناميت من ضمن مخلفات حربية كثيرة تركها حجيلان في بيته، أخذت الأصابع مع سيفٍ حادٍ تريد استعماله في اللحظات الحرجة، وتسللت في جنح الظلام إلى بيت الخصم، وبهدوءٍ تام تمكنت من زرع أصابع الديناميت في زوايا البيت.

وعندما تأكدت أنه لا يراها أحد أشعلت الفتيل الواصل بهذه الأصابع فانفجرت جميعها ونام البيت على ساكنيه ونجحت هذه العملية النوعية ولكنها غير متأكدة من موت الجميع، مما جعلها تقف

بالمرصاد شاهرةً سيفها لأي شخصٍ يخرج من هذه الكارثة بسلام، وفعلاً سلم بعض الرجال وعندما خرجوا وجدوا هذه الفارسة أمامهم تريد الإجهاز عليهم، وحصل صراع ومبارزة بينها وبين الرجال المتبقين حتى أجهزت عليهم جميعاً، ثأراً لزوجها وابنها، وهذا الطريق الضيق المسمى «سوق داحس» شاهد رسمي على هذا الحدث وعندما وقفتُ فيه قبل مدة شاهدته وقد خُيل لي أنه يسرد الحكاية ويقول لي اكتب وسجل في مذكراتك أن لؤلؤة العرفج أول مفجرة عرفها التاريخ العالمي وأنها دخلت في أرقام «غينس» القياسية وأنني بهذه المناسبة أنصح جميع المهتمين بالآثار ومسؤولي الترويج السياحي أن يهتموا بسوق داحس وكل الحي الدبلوماسي الذي يقع عليه، لأنه من المواقع المهمة والمثيرة والتي تمثل تاريخنا المجيد بكل تفاصيله.

كنت أقف في قمة هذا السوق وحدي وأنظر إليه وكأنني أرى تاريخ حياتي الذي مضى وكأنه البارحة، ما زلت أشم رائحة البرسيم الذي أحمله على رأسي لبقرتنا عشر سنوات متواصلة وأنا أمر من هذا السوق، وعندما أعود من المدرسة أقذف حقيبتي خلف الباب وأذهب إلى سوق البرسيم لجلب هذه الحزمة التي تفوق وزني وسوق البرسيم يقع إلى الشرق من سوق الذهب المظلل، عندما تسير فيه خمسين خطوةً تقريباً تشاهد إلى يسارك طريقاً ضيقة لا يتجاوز عرضها المتر الواحد ينفذ إلى ساحة أخرى أصغر من سوق الذهب يباع فيها الآن الأقمشة تصل إلى هذا المضيق قبل أن تبدأ بالولوج إلى قبة رشيد، كانت الأوامر العليا من حاكم البيت تحتم عليّ أن أكون المسؤول الأول عن جلب البرسيم وإلا فالعقاب في الانتظار، ومواصلتي جلب

البرسيم ليس حباً في البقرة ولكن الخوف من العقاب، والبقرة تُربط عادةً في فناء البيت قريبة من باب الحوش الذي يفتح على الطريق، وفي مرة من المرات وأنا ذاهب لجلب هذا البرسيم، كافأتني البقرة بأكل حقيبتي بما فيها من مناهج ودفاتر وأقلام، حتى المصحف ابتلعته ولم تراعي مشاعري الدينية أو تحترم إنسانيتي، إنني أكره هذه البقرة بالذات من دون الأبقار التي جلبها والدي، لأنها تقف لنا بالمرصاد دائماً عند الدخول أو الخروج من هذا الباب. تتناول الغترة من على الرؤوس بلسانها الطويل ولم تعف حتى النساء فتخطف العباءة بلمح البصر، حتى الزوار الذين يأتون لزيارتنا لا تحترمهم ولا تقدر قوانين الضيافة لأنهم يدخلون و يفاجؤون بها تقف لهم بالمرصاد تلتهم أي شيء يحملونه، لقد ذهبت إلى المدرسة بلا حقيبة وبلا دفاتر وواجبات وبلا مناهج أو أقلام، ويسألني المعلمون عن أدواتي فأقول لهم: إنها في جوف البقرة فلا يصدقون ذلك ويعتقدون أنني مهمل فيبدأ التعذيب والاضطهاد، كل معلم يدخل الفصل ويسألني عن دفاتري أقول له: إنها في جوف البقرة يباشر القمع، ولم ينته هذا اليوم الدراسي إلا ويداي ورجلاي قد تورمتا تماماً، قطعت المسافة الطويلة من البيت إلى المدرسة زحفاً على بطني، عالجت والدتي تلك التورمات بزبدة البقرة التي ابتلعت حقيبتي، وكلما شاهدت بقرة تشبه هذه البقرة وحيدة القرن والعين يصيبني نوع من الخوف والرجفة.

رفض والدي بيعها لأنها ذات لبن كثير وزبدة كافية لدهن البطن، ماتت في النهاية لأنها ابتلعت سكيناً كبيرة، فعاقبها الله لسبب ابتلاعها المصحف الكريم، استمرت أياماً وهي تتألم وتتوجع وتصدر

أصواتاً غريبة وأخيراً سكتت إلى الأبد، جلب والدي حمارين وقام أصحابها بربطها جيداً بالحبال وتم سحبها من البيت وتجمعنا نحن الأطفال وسرنا خلف البقرة وهي تسحب إلى مثواها الأخير خارج بريدة.

كنا ننشد بصوت عالي ونحن خلف البقرة، ونقول الأنشودة الإرهابية المعروفة في ذلك الزمن (وش تجرون؟ ... نجر سليسل. وش تجرون ؟ ... نجر المؤذي) لم تسعني الدنيا من الفرح لموت هذه البقرة لسببين، أولاً : لأنني أكره هذه البقرة، ثانياً : لأنني اعتقدت أنني انتهيت من حمل البرسيم على رأسي وجلبه كل يوم، ولكن لم يمض مساء هذا اليوم إلا وقد شرفتنا بقرة أكبر منها وأضخم جسماً وتحتاج إلى حزمة برسيم أكبر من الأولى وبدأت المعاناة من جديد ولكن هذه المرة أثقل أحمالاً، ومع هذا كانت أياماً جميلة وحياة هادئة، وأرواحاً سعيدة، كان الناس في ذلك الوقت يضحكون، ويمزحون، على عكس هذه الأيام الحزينة، حيث تشاهد الوجوم على محيا الناس وكأنهم يبكون من دواخلهم، ومع ذلك ما زالت رائحة البرسيم تلاحقني في كل مكان وأشمها وكأنني ما زلت أحملها فوق رأسي، رحمك الله يا بقرتنا «العفوف».



Twitter: @ketab_n



Twitter: @ketab_n

السوق الأول

صحراؤنا وكل الصحارى المماثلة كثيراً ما تدفن تاريخها وأثارها وأفعالها التي راحت، وإن حاولت أن تقتفي أثرها وتفهم شيئاً عنها فإنك تُصدم في سُراب يتبعه سُراب، لاتعثر على ماءٍ ولا على دلائل ترشدك إليها ولا إلى تاريخها، ماعدا أولئك الحكواتيين الذين يكررون كلاماً لا نثق به، ولكن شهود العيان هم الوسيلة الوحيدة، وهم صك الإثبات الوحيد على الرغم من الزيادة والنقصان والمبالغة لذلك سأعتمد على شهادتي وذكرياتي التي أعرفها عن هذا السوق العظيم.

كل مازودتنا به المراجع التاريخية أنه أول سوق نشأ في بريدة، وأول محفل جماهيري يلتقي فيه الناس، وأنه وقبة رشيد نواة بريدة الأولى ربما بالقرن العاشر الهجري وربما بالقرن الحادي عشر.

ما نعرفه نحن وما نعيه أنه سوق للحوم ويجمع كل المهن التي تُشتق من الحيوان كالخرازة والدباغة، مهن متداخلة ومتشابكة ويعتمد بعضها على بعض يعج بها هذا السوق، وتعتمد عليها عائلات كثيرة، حصلت لقمتها وعاشت في عزة وشرف في وقت لا يمكن الحصول على

اللقمة إلا بشق الأنفس، كان أجمل سوق في بريدة تتحرك فيه الأنفس في خفة وجد ونشاط، وكل «القصاصيب» يتسابقون في الإبداع واجتذاب الزبائن لعلهم يبيعون لحومهم قبل غروب الشمس وبالتالي فساد هذه اللحوم لعدم وجود الثلاجات والكهرباء، كانت معركة حامية يشتد لهيبها قبل نهاية النهار، فيختلط صياحهم بإغراءات الزبائن بالنكات (الطُّرَف) والتعليقات الساخر، وتبادل الشفرات التي لا يمكن فكها مهما فعلت، فمعركة السوق اليومية تجعل العمل قاسياً ورتيباً لذلك أدخلوا المرح والضحك ليكون نوعاً من الدعم النفسي المضغوط، فقد اكتشفوا الفكرة النفسية القائلة «إن المرح والضحك أثناء العمل يجدد النشاط ويجعل الحياة مقبولة وبالتالي يزيد الإنتاج».

اكتشفوها قبل قائلها بعشرات السنين فانعكس ذلك على مناخ السوق المرح، ومن أصابه هم أو غم ما عليه إلا أن يجلس على عتبة إحدى الدكاكين، ويعيش هذه الأجواء المرحة والضاحكة، وبالتالي يعود إلى بيته في حالة سعيدة، وكثير من رجالات البلد المهمين يأتون إلى هذا السوق عندما تنتابهم حالة من حالات الاكتئاب، فيسمعون (الطُّرَفَ) النكات ويشاهدون الحث على الشراء ويراقبون تلك الأجسام الأنيقة وهي تتحرك على الأرض ويشاركون (القصاصيب) في تلك النكات التي تنطلق كالقذائف وهي تنفجر من تلك الزوايا بلا تكلف، وأفضل من في هؤلاء الأشاوس؛ عُميانهم من الجزارين الذين يضعون النكتة فتجعل القلب المهموم يطير سعادة وفرحاً، وعندما يشعر هؤلاء الوجهاء أن الاكتئاب ذهب عنهم يعودون إلى بيوتهم، مازلنا نسمع تلك النكات

يتردد صداها بين آذاننا، إنه غبار الأمس وحكاياته التي لم تغب عنا لحظة واحدة.

في زمن الاكتئاب الذي نعيشه حالياً دائماً ما نهرب إلى الماضي، نردد أقواله ونستشفي بروحه، إنه نسيم معركة أصبح بعض رجالها تحت الثرى وبعضهم الآخر مازال ينهض بتثاقل، يحمل وثائق التاريخ ونتائج الجولات السابقة ويضحك كلما مر بخاطره مقلب سبق أن نظم خيوطه.

من ستين أو سبعين دكاناً يحتويها هذا السوق وكلها مبنية من الطين ومسقوفة من خشب الأثل تتكون مهنة أساسية تتفرع منها مهن أخرى تختلط ببعضها بعضاً وتصبح في النهاية «سوق عكاظ».

وبهذه المناسبة العظمى لابد أن نتعرف على الفئات المهنية التي تحتكر هذا السوق.

الفئة الأولى: فئة الجزارين بائعي اللحوم الحمراء فقط وهم غالبية أهل السوق وهم بيت القصيد، ينادون على لحومهم قبيل شروق الشمس إلى ما قبل الغروب، ومن يحسن تسويق لحومه هو من يملك الإبداع في وصف لحومه وموهبته الفذة في جذب الزبائن حتى عتبة دكانه يمزج وصفه لمزايا لحمه مع قليل من النكات الجميلة ويضيف عليها قليلاً من بهارات الأصوات والأهازيج الخافتة حتى يسترخي الزبون ويقطع التفاوض ويدفع المطلوب، ولكن للنظافة والهيئة العامة للدكان وأقمشة الشاش التي يلف بها اللحم دور كبير وعجيب باجتذاب

الزبائن، عندما يقترب المساء تشتد صولة السوق وتتعالى الأصوات الجميلة تنطلق من كل زاوية من زوايا السوق وكل ينادي على لحمه من أفواه وأجسام متعافية غذتها تلك الروح الضاحكة دائماً وأفضلهم إبداعاً في جذب الزبائن هو ذلك القصاب الذي يستطيع ترويج لحومه قبل غروب الشمس.

هناك شخص واحد فقط من بائعي اللحوم الحمراء يجلس على عتبة دكانه صامتاً، ولا يقوم بنشر الدعايات للحومه، يجلس بكل طمأنينة، وعندما يأتي إليه زبون ينهض ليبيعه بتثاقل ثم يعود إلى مكانه بهدوء، لا يعنيه إن بقي لحمه أو باعه كله فهو غير متحمس لذلك، عند أذان المغرب يقفل دكانه على ما تبقى من لحم وبعد الصلاة يعود مرة أخرى ولكن لماذا يعود؟! لأن هناك عشرات الضيوف الجياع متحلقين حول دكانه ينتظرون طعامهم.

تريدون أن تتعرفوا أيها الأعزاء على ضيوفه ... حسنٌ.إنها القطط الجائعة.

يسلم على الجميع ثم يدخل إلى داخل الدكان ويشرع في تقطيع ما تبقى من لحوم قطعاً صغيرة تساوي عدد القطط يقذف القطع واحدةً واحدة، وكل قطة تحصل على حصتها تغادر المكان بكل أدب، وإن حصل اعتداء فإنه يهدد المعتدي على زميله بقوة صارمة.

بقى على هذا الحال حتى مات، وعندما مات تبعته بريدة جميعها إلى مثواه الأخير و الناس لم تتوقف عن الدعاء له بالمغفرة

والرحمة وقد بقي الناس يتذكرونه زمناً طويلاً.

سجلي يا «غينس» رقماً جديداً قديماً لم يعهده العالم من قبل.

سجلي «رفيقاً بالحيوان» كان منسياً تحت رمال الصحراء، ولم تصل أخباره إلى الدوائر العالمية، لإنسان يطعم القطط الجائعة، في منطقة جائعة كانت اللحوم فيها تعتبر حلماً من الأحلام لا يناله إلا من وسع الله عليه بالرزق والمال، يقول الذين يعرفونه جيداً: إنه لم تتأثر حالته الاقتصادية أبداً على الرغم من أنه استمر عشرات السنين وهو يمارس هذه العادة الجميلة، كان مشهداً ملائكياً عظيماً ونحن نأتي كل مغرب إلى هذا المكان ونرقب الوضع باندهاش وحيرة لم نجد لها إجابة، وكل ما خرجنا به من احتمالات أنه شخص من أهل الجنة إن شاء الله.

الفئة الثانية: من (القصاصيب) هي فئة بائعي اللحوم البيضاء، وعددهم أقل من الفئة الأولى، وغالبيتهم من (القصاصيب) المتقاعدين الذين مرت عليهم سنوات من العمل الشاق أو من الفقراء الذين لا يملكون رأس المال، أو ذوي العاهات كالعميان الذين أنطفأ نورهم وهم يصارعون الحياة في هذا السوق.

ليس لديهم دكاكين وإنما يفترشون الأرض، يبيعون سواقط اللحوم مثل «الكرش، والأمعاء» يسمونها «الزُبيل» وكذلك «الكبد، والقلب، والكلى، والرأس، والكوارع» ويسمونها «القَصابة» يعرضونها

للزبائن بواسطة زنابيل كبيرة مصنوعة من خوص النخل على شكل صحنٍ كبيرٍ، زبائنها من الفقراء والمزارعين والمرفهين أيضاً الذين يحبون التنويع في طعامهم، والزُبيل له مذاق جنوني، ولذة عجيبة تضفي على المرقوق والمطازيز جواً رومانسياً يغري بالنوم المبكر، وتعتبر بديلاً لـ «الفياغرا» لأن لها قوة طبيعية خارقة، جربوها إن أردتم ذلك (ولكنني أخاف أن أتهم بالتشجيع على زواج المسيار).

الفئة الثالثة: البخّاصون: وهم جامعو البخص من السوق.

وهي بقايا العظام، كعظام الساق- والأضلاع الكبيرة — و أخفاف الإبل التي يقذفها القصاصيب خارج محلاتهم، أصحاب هذه المهنة من الفقراء يأتون بها إلى بيوتهم بكميات كبيرة، ويقومون بطبخها على نار حامية مدة طويلة ولكن ليس لأكلها فقط وإنما لتسريب الدهون منها أيضاً،ثم يجمعونها بأطباق ويذهبون بها إلى السوق لبيعها. نعم!!!

إنه ذلك الزمن الفقير الذي أكلنا أطرافه ولا تتعجبوا لو قلت لكم: إن غالبية أفراد هذه المهنة الأليمة هم الآن من أصحاب الأراضي والعقار ركبوا «اللكززات» ونحن يا من لم نلمس إلا أطراف ذلك الزمن الفقير مازلنا نركب «الجموس القديمة» نعم هل هذه تسمى عدالة التوزيع أم تبادل الأدوار؟

الفئة الرابعة: الحزارون «مصنعو المحزر»، وهذه هي صناعتنا البريداوية الوطنية التي نشتهر بها ونفاخر بها القرى

المجاورة، ومع ذلك يعيروننا بها، لأنهم لا يستطيعون الحصول عليها بسبب غلاء ثمنها الخيالي.

المحيزرة هي عبارة عن شحوم يعاد تركيزها عشرات المرات، ويصبح مفعولها أكثر تركيزاً من الشحوم العادية، ويكفي للطبخة الواحدة نصف ملعقة منها لتعوض الشخص عن اللحوم ومادة البروتين.

مشكلتها في صناعتها وفي رائحتها التفجيرية التي تغري بالانتحار إذ تستمر رائحتها في الفم والجسد عدة أسابيع، ولو شئت أن تتخلص من رائحتها لا تستطيع حتى لو ذهبت إلى حمامات تونس البخارية الشهيرة أو أخذت دشاً ساخناً من خليط العطورات الفرنسية، أو حتى استبدلت جلدك وفمك بأفواه وجلود عارضات الأزياء الإسبانية، أو حتى فجرت نفسك بقنبلة نووية، سوف تبقى آثار الرائحة في مكان الانفجار.

ذكرني هذا بذلك الزمن البعيد، عندما كنا ندرس في المدرسة الابتدائية، وكان بعض المعلمين من الإخوة الفلسطينيين إذا جاؤوا أول مرة للفصل يأتون وهم يلبسون الملابس الفرنجية والكرفتات، وقد دهنوا شعورهم بالكريم المعطر الرائحة، ولبسوا أحذية تلمع من النظافة، أقول عندما يأتون بهذه الطريقة، يفاجأون بهذه الرائحة العظيمة .. رائحة المحزر المختلطة برائحة البول ورائحة الأطعمة العالقة بالثياب، تلك الثياب التي لا تُخلع إلا مرةً واحدةً في السنة،

وهذا الفصل الضيق جداً والمبنى من الطين مع عدم وجود التكييف، وهو قادم من البعيد يقطع الوهاد بلا طرقات مسفلتة من الشام إلى بريدة، كيف بالله لنا أن نتصور المشهد والمفاجأة العظمى التي سوف يواجهها هذا المعلم الذي حكم عليه القدر بالإعدام، بعضهم يسقط مغمياً عليه، ومن لديه مقاومة يأتي من الغد وهو متلثم بشماغ ويقاوم بشراسة حتى (يقضي الله أمراً كان مفعولاً).

يستخدمون في صناعة المحيزرة «الشحوم الثقيلة مثل شحوم الإبل» يعبئون هذه الشحوم داخل كرش الخروف حتى تكون على شكل كرة قدم كبيرة، ثم يضعون في فتحة الكرش نوعاً من العظام التي تشبه (الماسورة) ذات فتحة ويربطونها جيداً بفتحة الكرش حتى تستطيع الكرش أن تطرد الغازات التي في داخلها حتى لا تنفجر، ثم تعلق في سقف الغرفة أو الدكان، بعيداً عن القطط والنمل والحشرات الأخرى، تستمر معلقة لشهر أو أكثر، تكون خلال ذلك قد حصلت التفاعلات الكيميائية والفيزيائية المطلوبة (و إن شئت حتى التفاعلات النووية) وتبدأ البكتريا عمليتها التحويلية، فتنتشر حينها الرائحة بشكل كبير بالمكان والزمان حتى يحصل الفساد المطلوب وهذا مؤشرٌ على سير العملية بنجاح، ثم تأتي مرحلة ما بعد الفساد فتقلّ الرائحة وتكتفي بالمكان الذي هي فيه فقط، وبهذا نكون قد حصلنا على دهون مركزة شديدة التركيز، تُنقل بعد ذلك إلى الأسواق، وتُباع (بالقطارة) لارتفاع سعرها الفاحش، ويتهافت عليها الزبائن من كل صوب، وتشد إليها الرحال من كل أرجاء نجد وما جاورها، إذ لها صُناع متخصصون يشتهرون بصناعتها، وأحياناً تشترك كل العائلة في صناعتها حتى

النساء والأطفال وتتحول البيوت إلى مصانع، وكانت الرائحة تشتعل بالحي، ولكن الناس متضامنون مع بعض ويجاملون بعضهم بعضاً مادام الأمر فيه بحثٌ عن الرزق، ولكن هناك من يتمرد من أصحاب البيوت المجاورة على هذه الرائحة، ولكن قطعة منها تستعمل كـ(بقشيش) تجعل اللعاب يسيل على مضض.

الفئة الخامسة: (الذبّاحون)

وهم الذين يقومون بذبح الإبل والأغنام وجلبها لأصحابها من (القصاصيب) الموجودين في دكاكينهم، هذه الفئة عملها في بيوتهم أو أحواشها التي تنتشر بين الأحياء، وغالباً ما يشترك أفراد العائلة جميعاً بالعمل، وهناك نساء يقمن بالدور كله حتى ذبح الإبل، يبدأ العمل في الساعة الثالثة ليلاً وتستمر إلى صلاة الفجر، وبهذا الوقت تكون اللحوم جاهزة لنقلها إلى السوق بواسطة الحمير أو العربات التي تجرها الحمير أيضاً.

صوت رغاء الإبل وهي تستغيث قبل الحكم عليها بالإعدام تملأ عنان السماء ويسمع هذا الرغاء كل من في الحارة، ومشكلة الإزعاج هذه تكون على أشدها في فترة الصيف عندما ينام الناس فوق السطوح.

يستغرب الإنسان أحياناً عندما يرى الناس المجاورين يتحملون تلك الأصوات والروائح الكريهة، ولكن ذاك زمن يتعاون فيه الجميع في السراء والضراء.

في عام 1379هـ/1959م عندما كان الملك سعود «رحمه الله» يقوم بزيارة لبريدة وذلك لافتتاح بعض المشاريع الاستراتيجية بالبلدة مثل المسجد الجامع الذي جدد بناؤه بعدما كان مبنياً من الطين وأضرت به سيول الهدام، وتم بناؤه من الصخور، وتم تنفيذه على يدي فلسطيني المهجر، وكذلك المكتبة العامة والتي تقع إلى الشرق من المسجد الجامع، والمستشفى المركزي بديل للمستشفى القديم الذي هو كان من طين أيضاً، والذي يقع شرق شارع الخبيب، وافتتاح الثانوية العامة، والمعهد العلمي، ومن المشاريع الاقتصادية والزراعية الكبرى، مشروع الدغمانيات الكبير، الذي استخدم فيه أحدث الوسائل الزراعية الألمانية، يديره خبراء ألمان، والأهم من ذلك كله زيارة الناس في بيوتهم، والإطلاع على أحوال مجتمع كان في يوم من الأيام البنية التحتية لأول كيان سعودي، وكل هذه المهام الشاقة أنجزها «أبو الشعب» في نصف شهر تقريباً.

كان عمري في ذلك الوقت لا يتجاوز العشر سنوات، وترتسم الأحداث في ذاكرة الصغار دائماً بشكل تفصيلي، وترسم مشهداً يستمر ويتكرر مع الشخص حتى آخر لحظة من حياته.

كان هناك دعوات كثيرة في برنامج الملك تعتبر أساسية، وأخرى تأتي على الطريق مفاجأة وهو ذاهب لتلبية دعوة أساسية، كتلبية دعوة رجل مسن على قارعة الطريق يحمل دلته وفنجانه، يقف الملك ويفتح نافذة السيارة ويتناول الفنجان ثم يغادر، وأحياناً تكون الواقفة على قارعة الطريق عجوزاً مسنة تؤشر بفنجانها في لحظة

مرور الملك، فيتوقف ويشرب الفنجان ويسأل العجوز عن أحوالها، هذه الدعوات العرضية التي تواجه الملك كثيرة ومتعددة، ما هي إلا تعبير صادق بلا مقدمات وبلا بهرجات تنطلق من أرواح محبين، ليست كالأصوات المبحوحة التي تنطلق من عقيرتها كأصوات الحمير.

وأقول كان في برنامج الزيارات الأساسية حضور حفل (القصاصيب) الذي بدأ في الساعات الأولى من الصباح.

من كان يراقب حركات السوق قبل الزيارة بأسبوع لابد أن يشكك في الأمر، تحركات غريبة على غير العادة، هرج ومرج، ولغة خافتة لا تكاد تسمعها، وأصوات يتداولها (القصاصيب) تدل على شيء ما سيحدث، ومشالح تُشاهد يلبسها (القصاصيب) لأول مرة في التاريخ، والحركة بينهم بأقصى سرعتها، مشاورات بين مجموعة هنا، وأخرى هناك، أصوات ترتفع محتجة سرعان ما تتفق، وجهاء يأتون ويقولون شيئاً، ويغادرون بسرعة.

المناداة على اللحوم أصبحت هادئة وبلا حماس، يبيعون لحومهم بأي سعر يفرضه الزبون ويقبلونه بسرعة، بعضهم بدأ يلقي نظرة فاحصة عابرة على جدران المقصب وكأنه يشاهده لأول مرة، ثم يمط شفتيه دليلاُ على عدم الرضا، هناك صندوقٌ يحمله بعض الرجال ويمررونه بطريقة سرية تقذف به بعض النقود بكل استحياء، وهناك رؤوس تتمايل يميناً وشِمالاً مع بعض الكلمات الخجولة تعبيراً عن ضيق ذات اليد !!!!

بعد أسبوع من هذا كله جاء يوم جديد، صارت البضائع المجلوبة إلى السوق من نوع آخر، وتحولت أعمال القصاصيب الروتينية إلى أعمال أخرى جديدة.

بدؤوا ينسجون على الجدران الطينية قماشاً من الكريم الأخضر وتحولت الجدران الغارقة بالدماء والدهون إلى لون سندسي جميل، وألبسوا أبواب الدكاكين قماش الكريم الأخضر الغامق، وفرشوا أرضية السوق الترابية والمغموسة بالدهون فرشوها بالسجاد الإيراني الزاهي.

فتحات السوق الشمالية والجنوبية غطيت بالستائر من الكريم الأبيض، وعلى يسار الداخل إلى السوق من الناحية الشمالية بني موقد القهوة والشاي والحليب، وصفّت الدلال البغدادية والرسلانية وهي تلمع كالذهب وأباريق الشاي المشجرة، ودلال الحليب الرفيعة التي تشبه الأصنام فتحول «الأوجار» إلى مجرة كويكبات درية، وتقلد الرجال الأحزمة الحربية، وتوجوا رؤوسهم بالعُقل لأول مرة بالتاريخ، وحملوا السيوف الهندية، والفقير منهم حمل الفؤوس والسواطير والسكاكين البلدية.

تغيرت لغة الأصوات القديمة والمناداة، إلى صياح الفرسان في ساحة الوغى، وصاروا يتقاذفون أشعار الحرب الصحراوية وهم مصطفون على جوانب السوق ينتظرون قدوم جلالته على أحر من الجمر.

ثم جاء الملك..

فبلغت الأرواح الحناجر، وتعالت أصوات الترحيبات والتبريكات بقدوم أبو الشعب «فترجل العظيم من سيارته وصافح الشيب منهم والعميان ثم لوح بيده الميمونة إلى بقية الحضور، جذبوه إلى محفل القهوة والشاي، ثم قيلت أشعار عند محفل الشاي بعضها سبق أن سمعه الملك وبعضها يسمعه لأول مرة، عندها نهض الملك إلى مكان العرضة الذي يقع بمنتصف السوق، وقد اصطف القصاصيب وهم يحملون السيوف والسواطير والسكاكين، فغاص جلالته بينهم. دقت طبول الحرب، وصهل الفرسان، وارتجَّ المكان وارتجت معه كل بيوت الحي الدبلوماسي، وعلت أصوات الحرب وبدؤوا يتقاذفونها بينهم وتمايلت أجسادهم ورؤوسهم طرباً وحمستهم الأشعار إلى الاستعجال بالمعركة، وخيل لبعضهم أن الدماء التي كان يشاهدها في السوق بالأيام التي سبقت ما هي إلا دماء الأبطال، وأن الجمال التي تجز رؤوسها ما هي إلا أعناق الفرسان المعادين، وكلاً منهم يزاحم من بجانبه حتى يصل إلى أقرب نقطة يشاهده الملك وهو يفعل العجب العُجاب، حتى وصلت الأمور إلى أن رؤوس العميان الثائرة اصطدمت برأس الملك عدة مرات، حتى الحشود من الرجال والنساء والأطفال الذين ضاقت بهم الطرقات المؤدية إلى المقصب أصبحوا تواقين للحرب، وغنى الأطفال وأنا من ضمنهم أغنية فلسطين المشهورة التي كنا نرددها بذلك الوقت.

جينا وجينا لك يا فلسطين

حنا رجالك يا فلسطين

بعد نصف ساعة تقريباً سكنت الأصوات وتغيرت الأدوار، وتحول الملك إلى مكان السامري، حيث كانت فرقة من القصاصيب تتهيأ لجولة صاخبة، ثم صدحت الأصوات العذبة، وصاحت الطبول، وهبت رياح الحب والغرام، وبدأ الحنين يفد على العشاق الذين غادروا وتركوا أبوابهم مشرعة للرياح، ومن شدة الحماس بدأ المشاهدون يتذكرون الأيام السالفة «وهل كان لهم في يوم ما حبيب يبكونه بهذه المناسبة السعيدة»، والملك واقف يشاهد المسرح «الروماني» متلذذاً ومعجباً في آن واحد، قال المقربون للملك:

لأول مرة نرى هذه الإشراقة السعيدة على وجه الملك.

وقالوا أيضاً: إنه استغرق وقتاً طويلاً يتذكر هذه المناسبة.

استمرت بريدة بعد هذا الحدث أسابيع عديدة وهي تغني، ومن كان لا يجيد الغناء حاول أن يجرب.

إنها ذكرياتنا الجميلة التي لا يمكن نسيانها، نستمر نسترجعها كلما رأينا ذواتنا تهرب من الاكتئاب، على الرغم من حالة الرخاء «والزيطة» التي نعيشها الآن حتى وصلت بنا الأمور إلى أننا صرنا نفضل الزمن الفقير، وكلما حاصرنا هذا الاكتئاب هربنا

واعتلينا رجماً من رجوم الصحراء وحاولنا أن «نرفع الصوت» بآهات وحسرات «تكسر القلب» على عيون غادرت ولم تعد، تهب علينا ريحها مع الأثير، عندها لا نستطيع أن نملك قلوبنا ودموعنا، فتتكسر القلوب وتسيل الدموع والسنوات تمضي، ولا حياة لمن تنادي.



Twitter: @ketab_n

انتفاضة المقهى

في صبيحة يوم مشرق من أيام 1376هـ 1955م، بدأ كل شيء وكأنه عادي، انطلق الناس إلى أعمالهم كعادتهم في الأيام السابقة الرتيبة، واكتملت صفوف الطلبة في مدارسهم، وبدأ اليوم الدراسي كالعادة.

المتقاعدون عن العمل من كبار السن جروا أجسادهم إلى عتبات الدكاكين أو نواحي الطرقات بتثاقل ليبدؤوا صباحهم بقصة جديدة أو خبر يقطع عليهم ساعاتهم الطويلة، وتوافد المزارعون إلى البلدة حاملين على ظهور حميرهم، والبرسيم الذي نشر رائحته العبقة مع نسيم الصباح. بدأ يسير كل شيء بسلاسة كالعادة، حتى شمس الصباح الصحراوية تمددت بأشعة عسلية وهي تدغدغ الجسد بحرارتها الحنونة، أصوات السماسرة بدأت ترتفع وتنتشر في ربوع بريدة مع نسيم الصباح.

بدأ المعوقون عقلياً يجوبون أطراف المدينة بحثاً عن خبر جديد يزفونه للناس مقابل أي شيئاً يضعونه في أفواههم الجائعة.

فجأة توترت الأجواء بلا مقدمات.

صار الناس يتراكضون بسرعة، منهم من اتجه إلى الجردة لمشاهدة الحدث من بُعد وبعضهم جذب نفسه إلى داره وأغلق عليه الباب جيداً.

« لا حول ولا قوة إلا بالله» دعوة يرددها الناس وهم يركضون.

وشوشات وكلام منخفض لا يكاد يسمع يقوله أولئك الذين تحلقوا على شكل جماعات صغيرة في الأسواق والطرقات متحمسين لطلب مزيدٍ من المعلومات والتوضيح، استمر الحدث ساعة تقريباً مجهول الهوية، ولم يتمكن الناس من إدراك مفهوم واضح لما يجري، في قلب الحدث تجمعات شبابية تردد شعارات غاضبة غير مفهومة للناس في الطريق الضيق الذي ينفذ من شارع الخبيب إلى الجردة والذي يسميه الناس أخيراً «طريق الباخرة» وقد غصَّ بالشبان البالغين الغاضبين.

أحد الكبار الذي تشابهت عليه الأمور بدا خائفاً من عودة الأيام الأولى قبل التوحّد قال: (قايلين لهم لا تستعجلون بهدم السور) ثم تبعه من لديه هواجس أمنية فشكوا بالقبائل المجاورة بأنهم نقضوا العهد والعقد وأغاروا على البلدة، واحدة من العجائز التي قطعت سَمرَها الصباحي مع صويحباتها وعادت إلى بيتها مسرعةً وهي تسأل جارها قائلة : «هم بدؤوا ينهبون الديرة ياحمود»، معتقدةً بأنها مازالت تغري الفاتحين، واحدٌ فقط من الكبار اقترب من تفسير الموقف بسبب

تجاربه القديمة وتنقلاته على زمن عقيل من بريدة إلى مصر قال «هذولا الجدعان بيعملوا زي قدعان مصر على زمن الخديوي عباس»

ولكن الناس لم يدركوا ما يقول ولا يعرفون ماذا تعني مظاهرات، وأخيراً اقترب الناس من تفسير الحدث عندما تفوه أحدهم ببضع كلمات قائلاً : «كل البلاء جانا من هالمقهى ألي تبيع البربورة»، لأن الناس المحافظين وهيئة الأمر بالمعروف سبق وأن أغلقوا مقهى فُتح لأول مرة في هذا الطريق يتناول فيه الشباب الشاي والشيشة «البربورة» كما كان يسميها الناس في ذلك الوقت يجتمعون فيه بعد صلاة العشاء، أما نحن الصغار فلم نستطع أن نفهم لماذا هذه الوشوشات وهذا الركض غير المبرر !؟ ولما عجزنا أن نفهم شيئاً انخرطنا في لهونا ولعبنا وشقاوتنا المعهودة وكأن الحدث لا يعنينا و سرعان مادخل الحدث في عالم النسيان بالنسبة إلينا وأعني أطفال ما دون المدرسة.

وهذه هي القصة أسردها كما يلي :

حدث في هذا اليوم تجمعات شبابية أمام مقهاهم الذي أُغلق، نصفهم من طلبة المدارس الكبار والنصف الآخر إما من الموظفين الشباب أو عمال النفط العائدين من المنطقة الشرقية والذين عملوا في شركة آرامكو الأمريكية السعودية لكنهم اختلطوا هناك مع فئات أخرى من العمالة، القادمين من اليمن وجيزان وعُمان وبعض العمال العرب الآخرين وبسبب احتكاكهم بهذه الفئات تعلموا شرب

الشاي «والبربورة» الشيشة، ولبس الفترة البيضاء، ولهذا قرروا فتح مقهى لهم لجذب بقية الشباب والسمر حتى ساعة متأخرة من الليل ولكن الساعة العاشرة ليلاً لا يصح تجاوزها بالنسبة لعُرف البلدة خوفاً من عدم الاستيقاظ لصلاة الفجر وبهذا الحجة قامت هيئة الأمر بالمعروف بإغلاق المقهى نهائياً.

وكانت هذه الخطوة التي أقدمت عليها الهيئة «القشة» التي قصمت ظهر البعير، وحدث هذا الانفجار من هؤلاء الشبان البالغين والذين يتضجرون كثيراً من سلطة الهيئة في ذلك الوقت، ووجدوا هذه المناسبة فرصة لطرح مطالبهم التي كانت في ذلك الوقت قمة المطالب الشبابية البريداوية، ولكن هذه ليست بمستغربة إذا أدركنا جيداً أنها أول انتفاضة شبابية تقوم في بريدة بل بمنطقة نجد كلها، ولذلك اختلفت الأمور على الناس ولم يستطع أحداً تحليلها، ماعدا ذلك «العقيلي» الذي اقترب من الموقع وشاهد مايشبه ذلك في مصر، أما بقية الناس فإنهم لا يستطيعون تحليل الموقف، ولذلك رجعوا بذكرياتهم القديمة زمن النهب والسلب وعبروا عن هواجسهم الأمنية، كحالة تلك العجوز التي عركها الزمن المنصرم.

رفع الزعيم أول شعاراته بصوت جهوري اهتز له المكان وردد معه الشبان هذه الأصوات الرفيعة المجلجلة حتى أدخلت الرعب على المتفرجين هناك، و خافوا من المجهول، كانت مطالبهم واضحة ومسموعة وتعتبر من أعظم المطالب التي يتفوه بها بصوت مرتفع في ذلك الزمن، ولكنها تعتبر سخيفة جداً لأجيال هذا الزمن المترهل

وكانت تلك المطالب:

1- استمرار المقهى مفتوحاً يمارس عمله بلا إغلاق.

2- السماح لهم بركوب الدراجة الهوائية «السيكل» والتجول بها بحرية تامة.

3- السماح لهم بلبس الفترة البيضاء وعدم نزعها من على رؤوسهم من قبل هيئة الأمر بالمعروف.

4- مساواتهم بشباب الوطن بالعدل والمساواة.

كل هذه المطالب العظيمة رددوها بصوت عالٍ أمام رجال الهيئة «النواب» وكان هؤلاء الآخرون ينظمون هجمة مباغتة على هؤلاء الشباب الذين تجرؤوا وعبروا عن مطالبهم بهذه الطريقة العاهرة، التي لا يقرها مجتمعهم ولا تعاليم الدين !

وفعلاً حصل الهجوم المباغت وعلى حين غرة من الشبان، الذين صدوا الهجوم بهجوم مماثل انهزم على إثره رجال الهيئة، ثم انسحبوا إلى قواعدهم سالمين، وهم يحملون جرحاهم على أكتافهم بعدما أصيبوا بكدمات عميقة، أعاد الشباب ترديد مطالبهم والزعيم بالوسط، وكل لحظة يبتكر شعارات جديدة، ويصرخ بصوت عال والجميع يردد خلفه. استمروا ساعةً أو تزيد قليلاً وهم على هذه الحال، وما علموا إلا بهجمة ارتدادية قام بها «النواب»، ولكن بعد

تزايد الشباب وتكاثرهم بشكل مخيف، إذ إن بعضهم ترك عمله وجاء للمساندة وبعضهم تسرب من مدرسته، لهذا ردت هذه الهجمة على أعقابها، وبهذا كسب الشباب البالغون الجولة الأولى ولكن ؟؟

ماذا حدث بعد هذا ؟؟

مازالت القضية قضية احتجاج وعرض مطالب، هذا في الساعتين الأوليين من الصباح ولكن بعد دخول ثمانية عشر شاباً ملثمين إلى الميدان تغير مجرى الاحتجاج وتحولت إلى مسيرة، وصار الزعيم يتلقى الأوامر والشفرات من هؤلاء الفتية، اخترقت المسيرة أرض الجردة متجهةً إلى مدرسة الفيصلية الابتدائية الوحيدة ببريدة إن لم تخني الذاكرة.

واقتحموا المدرسة وأخرجوا الطلبة منها وأمروهم بالانضمام إلى المسيرة، بعض الطلبة أذعن للأوامر وبعضهم الآخر هرب إلى بيته، ويمكن لبعضكم أن يستغرب أن طلبة صغاراً يدرسون في المرحلة الابتدائية يؤمرون بذلك ولكن يمكن أن يزول الالتباس إذا أدركنا أن السنوات العمرية لدخول المدرسة غير محدد، فكنا بالصف الأول ويدرس معنا بالفصل من بلغ العشرين عاماً وكذلك من بلغ السبع سنوات وبهذا يكون الفصل مختلط الفئات العمرية وذلك لحداثة التعليم النظامي.

سار المتظاهرون إلى المدرسة الثانوية وفعلوا مثل ما فعلوا بمدرسة الفيصلية.

عندها تغيرت المسيرة وتحولت إلى «تمرد وعصيان مدني ومحاولة انقلابية على الأمير» عندما تغيرت الشعارات والنداءات وصارت تُعبر عن سقوط الأمير وسقوط هيئة الأمر بالمعروف أيضاً والمطالبة بحكم «الزعيم» ولم تكتفي الأمور بهذا بل سارت وحاصرت قصر الإمارة الذي هو الآن الإمارة القديمة ومبنى الشرطة الجنوبية والدفاع المدني عندما كانت هذه المنطقة محاطةً بسور من الطين ويسكن الأمير داخلها، وأصبح محاصراً داخل القصر وكأنهم نجحوا وفُتحت «قرطاجة» والفارس «أخيل» يمتطي أكتاف «الإسكندر المقدوني» وسجلوا في هذه المعركة «إلياذة جديدة» يرسمها لكم بالصوت والصورة «فقيركم بالله»

وماذا بعد ؟

استمروا بمحاصرة القصر حتى أذان العصر، بعدها بدأ الانسحاب شيئاً فشيئاً، وفي النهاية انتهى كل شيء وكأن شيئاً لم يحدث، وكأن البلدة تمر بأضغاث أحلام ومسرحية خيالية لا تعرفها الذاكرة الاجتماعية حتى الرمال والكثبان الرملية تغيرت عليها الأمور ولم تستطع هذه الكثبان الرملية أن تقبل رقماً غريباً عليها تدفنه تحتها وتحفظه في حافظة النسيان الذي يقع في جعبتها، لذلك بقي هذا الحدث ظاهراً للعيان ولم يُنسَ كغيره من الأحداث الأليمة والسعيدة التي دُفنت تحت الأرض لذلك أصبح رقماً نشازاً تردده الأجيال جيلاً بعد جيل، وتطرح أسئلة لا تجد لها إجابة عن هذا الحدث وها أنا أسردهُ لكم وفي الحلقة القادمة أطرح ملفاتها ونقرؤها معاً قراءة تحليلية

هادئة محاولاً إزالة بعض المفاهيم الخيالية التي صاحبت هذا الحدث ونُغلق ملفاتها إلى الأبد ونقنع الكثبان بقبولها ودفنها مع أخواتها، ولكن هل اكتملت القصة ..؟

لا لم تكتمل.

انفجرت أسارير الأمير، وبدأ يتخذ القرارات الارتجالية وبلا تفكير أو مشورة من أحد،

وبسرعة أرسل إلى الرياض برقية عاجلة هذا نصها أو معناها:

(النجدة .... إن أهل بريدة ثاروا علينا و فسخوا العقد بيننا وبينهم وأعلنوا الخروج على ولي الأمر...!!!) وصلت هذه البرقية إلى الملك سعود رحمه الله وصار بين مصدقٍ ومكذب وخاصةً أن هذا البلد الذي يعتبر البنية الأساسَ للكيان السعودي، والذي يعتبر في الأيام الخوالي بيت الملك عبد العزيز رحمه الله، الذي كان المغفور له يأتي إليه وكأنه واحد من أهلها يقرع باب أي بيت فيها ويقول كلمته المشهورة فقط «أنا عبد العزيز» ويُفتح الباب بكل ترحيب وكأنه أحد أبنائه العائدين من سفرة طويلة. لا.. لا.. لم يصدق الملك سعود «رحمه الله» هذا وفضل التريث والتأكد من الأمر جيداً ولو أنه غير مقتنع تماماً من الحدث، فأرسل أحد رجاله الحُكماء مع فرقة صغيرة من المحاربين القدامى على طائرة مجولقة وأمرهم بالنزول بعيداً عن بريدة ثم الزحف ليلاً إلى أطراف المدينة واستطلاع الحدث جيداً «قيل

لي من أحد الرواة الذين يكبروننا سناً»: نزلت الطائرة في القاع المتسع على طريق الرياض القديم قبل الصعود إلى رمال الشماسية وحدث هذا في جُنح الظلام، وقبل أن ينشقّ الصباح زحفت الفرقة «المجولقة» إلى أطراف المدينة ثم تمددت في طرقاتها فوجدتها هادئة تغط في نوم عميق، وفي الصباح كانت الأمور عادية وكأن شيئاً لم يحدث فانسحبت الفرقة إلى قواعدها.

شارع الخبيب (الملك عبد العزيز حالياً) شهد مسيرة أول احتجاج علني ببريدة.

كان بإمكان الأمير أن يُعالج الأمور بنفسه وبلا تصعيد وما هي إلا غضبة شبان بالغين يطالبون بأشياء بسيطة، وكان الأفضل ألا تتعدى الأمور أسوار البلدة وتصبح فيما بعد في ذاكرة النسيان، ولكن حصل ما حصل، و تحول الحدث إلى ذاكرة وطنية ترددها المجالس حتى الآن ويُضاف إليها من المبالغات «ما لله به عليم». من الممكن أن تموت لو كان الأمير اتخذ القرار المناسب والهادئ، ولكن بسببها فقد منصبه فوراً عقاباً له، وحكومتنا دائماً تسعى إلى التهدئة ودائماً تقدم الجزرة ثم الجزرة أولاً وتتخذ في النهاية العقاب الحكيم الهادئ.

ثم ماذا بعد ؟

في صباح اليوم الثاني قامت مجموعة مكونة من رجال الأمير ورجال هيئة الأمر بالمعروف باعتقالات واسعة النطاق بأرجاء المدينة شملت كل الشبان الذين شاركوا و الثمانية عشر ملثماً و الزعيم «أخيل ونقلوا مجولقين» إلى الرياض على الطائرة نفسها التي جلبت المحاربين القدامى، في الرياض حقق معهم وعندما تأكدت الجهات المختصة أنهم لا يضمرون شيئاً غير المطالب الصغيرة التي طلبوها وأن مستوى تفكيرهم لا يتعدى هذه المطالب وأن ليس لها أهداف سياسية، وأن ثقافتهم لا تتعدى مجلة «قافلة الزيت» أو سماع الراديو، وأن المثقفين الحقيقيين الذين يحملون توجهات ثقافية أخرى لم يشاركوا في هذه الانتفاضة لأن هؤلاء منهمكون في أعمالهم التعليمية وهمومهم الثقافية التي هي أكبر من هذه المطالب وهي عملية التحديث التي رعاها الملك عبد العزيز ومن بعده الملك سعود وعندما تفهمت الحكومة ذلك وأن الأمر لا يتعداها، وأن البلاغ الذي وصلها مُبالَغٌ فيه كثيراً، وصادف ذلك وجود جماعة من بريدة في الرياض لمقابلة الملك والشفاعة لهم صعب عليه (رحمه الله) وأرسلهم إلى بريدة، وطلب محاكمتهم محلياً، وأخيراً حُكم عليهم بالجلد وأفرج عنهم، ولكن ليس لأنهم تظاهروا وأعلنوا مطالبهم ولكن بسبب اقتحامهم المدارس ومحاصرتهم قصر الإمارة.





Twitter: @ketab_n

قراءة تحليلية لحادثة المقهى

يسمونها بلاد الدين، وأحياناً يتجاوزون ذلك ويسمونها «بريدة المكرمة»، ونحن نقبل هذه التسمية إذا كانت تعني ما تقصد، لا بل نفتخر بها، وبلاد الدين هذه صارت الآن خامس مدينة بالمملكة، وقد أصبحت كذلك بفضل كفاحها ونشاطها الدائمين ولم يمنحه لها أحد، وذلك الاستقرار الذي تعيشه، وبلاد الدين هذه أنجبت للوطن الكثير من علماء الدين البارزين على ساحة الوطن بل على الساحة الإسلامية.

الشيخ عبدالله بن حميد

القاضي والمفتي الذي رحل عنها إلى تولي مشيخة الحرم.
بكته بريدة عندما غادرها.

مازلت أتذكر أمي وهي تنتظر يوم الاثنين، لأن الشيخ سيلقي محاضرته بعد صلاة العشاء بواسطة مكبر الصوت الذي رفضه كثير من رجال الدين في ذلك الوقت، فقد كان يلقي محاضراته والناس تستمع إليها وهم في بيوتهم.

تصعد أمي إلى السطح وتستمع بإنصات إلى مايقوله، حيث يرشد الناس إلى قضاياهم الفقهية في الصلاة والصيام والحج، وكذلك يحث على الأخلاق الحميدة والصدق في المعاملة، وكان بعيداً كل البعد عن الخطب الأيدولوجية والسياسية. مات رحمه الله وقد أنتج لنا شيخاً جديداً قام مقامه هو ابنه «صالح» رئيس مجلس الشورى سابقاً...

فضيلة الشيخ الزاهد العظيم «صالح بن أحمد الخريصي»

الذي تولى القضاء والفتوى وقد توفي ولم يترك من فُتات الدنيا شيئاً.

هذا قليل من كثير من العلماء الذين تعج بهم الساحة.

ولكن هناك فكر وفلسفة وثقافة تسير جنباً إلى جنب مع الدين «عبدالله القصيمي»

صاحب فلسفة العقل وصل إلى العالمية بفلسفته وفكره، فكتابه «هذه هي الأغلال» الذي ألفه قبل ستين عاماً لم يأت الفكر العربي إلى الآن بشيء جديد يضيفه إليه. وكتابه «أيها العقل من رآك» تُرجم إلى لغات عدة ومازال يُدرس في الجامعات العالمية.

«عبدالرحمن المنيف»

الروائي العربي العالمي صاحب خماسية «مدن الملح» والتي

تتكلم عن نشأة النفط في الخليج وكذلك روايته «حينما تركنا الجسر» والتي تتكلم عن الهزيمة الفضيحة مع العدو الصهيوني عام 1967م، إنها من أفضل الروايات الفلسفية ولايمكن أن تضاهيها رواية آخرى سوى رواية «الشيخ والبحر» «لهمنغواي» في نظري. وهناك الكثير من الروايات العربية التي أغنت الساحة.

«سلمان العودة»

رجل الدين والفكر نبت في هذه المدينة وطار فكره في الآفاق بعصاميته فقط وصل إلى ما وصل إليه ولم ينصبه أحد.

لم أتوقع لهذا الصبي الصغير الذي يساعد والده في دكانه أن يصل إلى هذه المكانة العالية، لو كنت أعلم لخجلت منه كثيراً وأنا آتي إلى دكانه الصغير أشتري منه القهوة والهال.

«إبراهيم البليهي»

صاحب «مشروع العقل» صحيح أنه من مواليد بلدة الشماسية ولكن هذه المدينة هي بنت بريدة بنشأتها وبكل تفاصيلها.

هؤلاء هم زعماء العلم والمعرفة والدين الذين أنجبتهم وعلمتهم بلاد الدين

رباه ما هذه المتناقضات!

وما هذا التفاعل والنشاط والحركة الذي تفرزه هذه المدينة إنها رواية وحدها، لا يمكن لأحدٍ أن يدركها ويفهمها جيداً أو يعثر عليها إلا لمن نبت فيها وتنفس ترابها.

لا يمكن لسطورٍ قليلة أن تعرضها للتشريح بهذه العجالة.

بالتأكيد هي بلاد الفلسفة والدين، بلاد الآراء المتعددة، ولا يمكن لهذه البريدة المتعددة أن تكتشف سرها حتى «تتعلل» فوق طعس من طعوسها الليلية مع القمر والنجوم والدلة الصفراء التي تطبخ على نار هادئة.

كل الأقمار والنجوم التي مرت من هنا «راحت» وفي مخيلتها سؤالٌ لم تعثر له على إجابة.

أنت تفكر هنا فأنت موجود وغير موجودٍ في الآنِ معاً، إذ لابد أن تغرق في خمرة الدوح ورملة الشمس الذهبية بين السدر والعوشز، تترنح طرباً بين أصوات «القُمرَة، وأم سالم»تسقيك شهداً وتزرع في فكرك سؤالاً لاتستطيع الإجابة عنه. يستقبلك طير «القُمرَة» ويطرح عليك السؤال اللغز.

هل تعرفون بلاد الدين أيها المارة ؟ فتبقيك حائراً هائماً بين الدهنا والنخلة العتيقة بعدما تفرش لك جناحيها وتوحي لك بالإجابة «علامة السلام» والإنسانية.

وعندما يمر صاحبها القديم صاحب «رملة المساء» الشهيرة تقف له احتراماً وتقول له تفضل اسأل ؟ فيقول :

لماذا يمنعون السياكل والغتر البيضاء والجلوس في المقاهي ؟

قالت: لماذا لاترجع إلى حلقاتك السابقة التي كتبتها وتتأكد من ذلك.

قصتها بدأت منذ الأزل. منذ وجدت وانبثقت من الأرض.

قُلت سابقاً: إن بريدة في زمنها الأول تشبه «يثرب» وسكانها الأوئل يشبهون الأوس والخزرج والأقليات الأخرى التي تعيش فيها مراكز قوى تتطاحن فيها لا يتفقون على شيء، كلهم أمراء، وكلهم يمارس أوامره ونواهيه، والقيادة ليست موحدة، وتبديل الأمراء يحدث في كل ساعة كما كان سكان «يثرب» ولكن فجأةً سمعوا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فاحتضنوها وعضوا عليها بالنواجذ، لأنهم يعرفون جيداً أنها هي من يوحدهم وهي وحدها من يجعلهم قالباً واحداً، كما حدث سابقاً لسكان يثرب عندما رحبوا بنبي الله «صلى الله عليه وسلم» فصار الحاكم واحداً، والمفتي واحداً، و الآراء متعددة.

في بداية الدولة السعودية الثانية كان يقوم بدور القضاء والإفتاء أسرة «آل مقبل» التي لايوجد أحدٌ منها الآن في بريدة ماعدا الأستاذ عبد العزيز المقبل هذا الرجل الصالح المتواضع ، زاملني في التعليم وهو الآن متقاعد، تشعر عندما تقابله وكأنك أمام شخصيةً

مهيبة وعندما تتذكر أجداده الأوائل الذين تولوا زمام الدين تشعر وكأنك أمام شيخ عظيم، ووجود العائلة في بريدة وقلة عدد أفرادها، هذا لا يعني أن العائلة منقرضة ولكن يوجد منهم القلة أيضاً في خبوب بريدة الغربية هذا حسب معرفتي بهم وأنا غير متأكد من هذا الكلام، ولم أجد الفرصة أثناء كتابتي هذا المقال للبحث عن الأستاذ عبد العزيز حتى اسأله عن وجود العائلة، وهم أقرباء لأسرة «آل سليم» الذين تولوا القضاء والإفتاء في بريدة فيما بعد والتي سآتي على ذكرهم.

الشيخ «سليمان المقبل»

له فضل كبير جداً عندما ذهب إلى «ابن رشيد» ليشفع للناس عنده بعد معركة المليداء الشهيرة، وكان يتوعد أهل بريدة بالفناء.

وكان للشيخ المقبل رحمه الله مواقف كثيرة مع آخر أمراء «آل أبو عليان» عبد العزيز المحمد هذا الأمير كان طموحاً جداً ويعشق التوسع على حساب المناطق الأخرى، ولا يمر يومٌ على بريدة إلا ويكون عائداً من حرب أو مجهزاً لدخول حربٍ أخرى، وقد قرر أخيراً أن يغزو حائل ويقضي على دولة آل رشيد القوية جداً في ذلك الوقت، وقد نصحه الشيخ عدة مرات من بينها واحدة في خطبة الجمعة وعلى الملأ مباشرة والأمير كان بين الصفوف الأولى، ولكن الأمير أهان الشيخ بكلمات نابية، وقد تراجع أخيراً عن موقفه، وبعد الصلاة اعتذر للشيخ عن هذا الخطأ، أما الأمير فقد هُزم هزيمة شنعاء وقُتل من أهل بريدة وعنيزة الكثير وذلك في معركة «بقعاء» المشهورة، وكان الشيخ دائماً

يميل إلى العقل، والتخفيف على الناس، بعد ذلك دخل في خلافات مع الأمير حسن المهنا أبالخيل، وكان الأمير حسن هو بدوره عالماً دينياً ويميل إلى التشدد أيضاً ويفتي الناس ببعض الأمور ولكن كان خلافاً دينياً وليس سياسياً، وغالبيتها تحدث عند رؤية هلال رمضان أو هلال العيد، فكلا الاثنين يفتي بذلك، فتجد نصف أهل البلد صائمين والنصف الآخر مفطرين وكذلك في يوم العيد، ولكن تجد هناك حرية إفتاء بلا غضب أو تشنج أو عداوات تؤدي إلى الاحتراب والقطيعة.

في بداية الدور السعودي الثالث، وحكومة الملك عبد العزيز رحمه الله، تحول القضاء والإفتاء والدعوة إلى عائلة «آل سليم» أقرباء الشيخ المقبل، فقد تولى من عائلة «آل سليم» الشيخان «عبدالله وعمر السليم» وهذان الشيخان أسسا مدرسة دينية وتعليمية أُطلق عليها فيما بعد «مدرسة آل سليم» المتحمسة كثيراً لدعوة «الشيخ محمد بن عبدالوهاب» وتتجه في تعليمها إلى المحافظة.

كان الملك عبدالعزيز رحمه الله في ذلك الوقت يهدف إلى التوسع في دولته، وكانت طموحاته كبيرة جداً تصل إلى دولة حائل التي لم تسقط بعد وهي المتحالفة مع الأتراك الذين يمدونها بالمال والسلاح والرجال وتشمل هذه الطموحات أيضاً «الحجاز» وحكومة الأشراف الخاضعة تماماً للاحتلال التركي المباشر، وهذان الهدفان الكبيران يحتاجان إلى جيش قوي جداً مدعوم بالسلاح والتدريب والعقيدة الدينية القوية وتحويل عقيدة النزاع القبلي إلى جيش مجاهد يحمل روحاً دينية تقاتل بإخلاص، ولا يمكن أن يحصل هذا وخاصة في نجد

حتى تقوم دعوة نشطة مخلصة تستطيع أن تلعب دوراً قوياً في تأهيل هذا الجيش المبني على تلك العقيدة الجهادية العملاقة.

لذلك لعبت مدرسة «السليم» دوراً مهماً في المشاركة فأرسلت تلاميذها إلى القبائل والحواضر المجاورة وتأهيل أبناء بريدة أيضاً لهذا الدور وفعلاً نجحت المهمة، واستطاع أبناء القبائل ترك رعاية الماشية التي تشغلهم عن الجهاد في سبيل الله وأقاموا بالحواضر أو بالقرى والهجر التي بنيت في مناطقهم بما يسمى بمشروع «توطين البادية» وتلقوا الدروس الدينية على أيدي أولئك التلاميذ الذين بعثتهم مدرسة السليم لهذا الغرض، ولكن هذه المدرسة النجيبة التي خرجت الكثيرمن الدعاة والقضاة العظام توصلت أخيراً إلى فتوى «بتكفير الأتراك » وتفرع من هذه الفتوى فتاوى فرعية تكفر من يذهب إلى العراق والشام ومصر ويتعامل مع سكانها وبالتالي تكفير كافة رجال عقيل الذين لايمتثلون لهذه الفتوى، وتسلسل سيناريو التكفير حتى وصل إلى تحريم لبس العقال لأنه لباس القوم الكافرين، فانشغلت بريدة في ذلك الوقت في قضية التكفير وكان هرج المجالس، ولغة الناس الغالبة وكل فرد لايتقيد بفتاوى تلك المدرسة يطلقون عليه مسمى «الكويفر»

هذه الضجة الكبيرة التي حدثت في الأربعينات الهجرية من القرن المنصرم، قبل فتح حائل والحجاز أدت إلى أمر خطير جداً، وهو انقسام مدرسة السليم إلى مدرستين مختلفتين تماماً، بعد خروج التلميذ النجيب «إبراهيم الجاسر» على هذه المدرسة، وأسس مدرسة جديدة سميت في ما بعد مدرسة «آل جاسر» انضم إليها بعض من

تلاميذ مدرسة « السليم» وتشتهر هذه المدرسة برفض تكفير الأتراك، وبالتالي رفض تكفير رجالات عقيل، فاحتدمت معركة حامية الوطيس بين المدرستين.

وعلى إثر هذا الانقسام انقسم الشارع البريدي إلى «كويفر ومسلم». لاحظ الانقسام الحالي بين «ليبرالي وإسلامي»

وكانت مدرسة «الجاسر» تميل إلى فكر «سليمان بن عبدالوهاب» الأخ الشقيق لصاحب الدعوة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله، والمتعارضتين تماماً.

في تلك الزوبعة الخطيرة التي حدثت في بريدة وانقسام الناس أيضاً إلى مؤيد ومعارض؛ انضم الكثير من الفلاحين وبخاصة الخبوب الغربية إلى مدرسة «آل سليم» وهذا ما يفسر لنا شغف أهل الخبوب بالدراسات الدينية وقد ظهر منهم كثير من العلماء الأجلاء مثل الشيخ «سلمان العودة» والشيخ « ناصر العمر» وكثير من القضاة المنتشرين في أنحاء المملكة، وانضم أيضاً إلى مدرسة آل سليم كثير من التجار الأغنياء ولكن ليسوا تجار عقيل الذين انحازوا إلى مدرسة «الجاسر» مع أصحاب الحرف والمهن فأصبحت بريدة هكذا حتى الآن، ولكن الشيخ «إبراهيم الجاسر» هرب إلى حائل بعد الضغوط الشديدة التي مورست عليه، وأخيراً خرج من حائل إلى الكويت واختفى بالطريق بظروفٍ غامضة لاتُعرف حتى الساعة ولكن مدرسته ظلت تمارس عملها في بريدة وقد تخرج منها الكثير من الطلبة وغالبيتهم اشتغل

بالشؤون الإدارية والتعليمية، فقط دون الدعوة والقضاء وهم من تولى إدارة التعليم وإدارة المدارس والمعاهد.

في زمن انتفاضة المقهى كان يرأس هيئة الأمر بالمعروف أحد تلاميذ «آل سليم» الحريصين جداً على المحافظة، والناشط الجيد الذي لعب دوراً في هذه المدرسة وهو فضيلة الشيخ العالم «صالح بن أحمد الخريصي» الذي تولى القضاء والإفتاء فيما بعد، وهذا ما يجعلنا نفهم السبب الأساس لتلك الإجراءات الصارمة التي اتُخذت ضد «ثوار المقهى»، وإن كان هذا يدل على شيء فإنما يدل على حرص هذا الشيخ على محاربة الشبهات التي تؤدي حسب وجهة نظرة إلى الفساد «رحمه الله وغفر له».

إذاً هذه بريدة التي تتكلمون عنها مزيج من الآراء ومزيج من الفسيفساء، وليس لها وجهة محددة تستطيع أن تحدد ملامحها، ولكن كلنا يعرف أن الصوت الديني يعلو على كل الاتجاهات والأفكار فيها، ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب هي الوجه الشرعي لهذه الدولة التي وحدت الجميع تحت شعار الشريعة الإسلامية، لذلك لابد أن تخفت الأصوات الأخرى حتى لو كانت تشكل الأغلبية، فالدين مقدم على الجميع، هذا هو شعار الوطن ولا يمكن لأحدٍ تغييره مهما كان ومهما كُتب من أفكار ووجهات نظر أخرى.

هذا تفسير واجتهاد مني مبني على الحقائق وأخبار التاريخ، الذي سمعناه وتعلمناه عن هذه المدينة، وبذلك أرجو أنني وضحت

بعض الإشكالات والتساؤلات الكثيرة التي تُطرح أحياناً عن هذا البلد وكيف تشكلت ثقافته وعاداته وتقاليده وكيف بُني ولماذا يسمى بلاد الدين ؟ ولماذا قامت الانتفاضة ؟ وكيف أن هذه البريدة تعتبر عضواً فاعلاً في تشكيل الهوية الثقافية والفكرية لهذا الوطن، ولكن لابد لنا أن نعرج على بعض التساؤلات الأخرى التي تُطرح أحياناً في المجالس والاستراحات من جيل جديد يثير أحياناً قضايا أخرى تخص هذه الانتفاضة.

فمنهم من يقول: إن لها أهدافاً سياسيةً ولا تعدو أن تكون حركة من ضمن حركات أخرى قامت في البلاد العربية مؤيدة للقومية الناصرية، وهي جزء من تصدير الثورة القومية الناصرية والدليل على ذلك أن كثيراً من الإذاعات العربية الناصرية تطرقت إليها بالتفصيل.

ومنهم من يقول: هي انتفاضة مؤيدة لعمال (آرامكو) للمطالبة بحقوقهم وتأميم النفط كما فعلت مصر في تأميم قناة السويس.

كلها أسئلة شطحت كثيراً في تضخيمها حتى صارت «أوسع من الرقعة» كعادة المجتمعات العربية في تحليلاتها للأحداث والشطحات القاتلة في تفكيرها ومشكلة تلك المجتمعات أنها لم تتعلم بعدُ الحدسَ التاريخي، ومقارنة الأشياء على أرض الواقع، ودائماً ما تبحث عن آخر يقف من خلفها، حتى خيباتنا وفشلنا خلفها آخر وتقرنه بالحدث

فتظهر تحليلاتهم أو قراءاتهم ممسوخة ليس لها رأس ولا ذنب، كما أن الإيديولوجيا البغيضة التي مازالت تهيمن على تفكيرنا وتعاملنا مع الحياة فإنها تتركنا ننظر من جانب واحد ونترك بقية الجوانب، وأنا عندما أقول هذا الكلام لا أقصد الدين؛ فالدين عقيدة سماوية وليست أيديولوجيا ولايمكن أن تدخل ضمن أفكار الأيديولوجيا : فالأيديولوجيا مادية أرضية وهي وسيلة من وسائل العيش على الأرض، ولكن عندما تتطرف فإنها تكون عمياء، كالشيوعية، والفاشية، والقومية، والبعثية.

جمال عبدالناصر كان صديقاً للملك سعود في زمن الانتفاضة، وتبادل مشاعر المودة بينهما كان على أشده، وكان الملك سعود من مؤيدي القومية العربية، والهدايا الرمزية التي تمنحها مصر للمملكة كانت واضحة وتتمثل بالمعلمين المصريين التي ترسلهم بلا مقابل، وكذلك الدفاتر والأقلام، ومازلت أتذكر تلك الدفاتر التي رسم عليها صورة جمال عبدالناصر توزع علينا مجاناً، وكانت المملكة في ذلك الوقت في بداية نهوضها، وعائد النفط كان قليلاً لا يكفي، وما ساءت هذه الصداقة الحميمة إلا بعد الانتفاضة بعقدٍ من الزمن تقريباً، عندما تورط جمال عبدالناصر بالوحل اليمني وساعد الثائر «عبد الله السلال» في الانقلاب العسكري على ملك اليمن الإمام («البدر)». فصارت هناك حرب أهلية أكلت الأخضر واليابس ولم يستطع جمال الخروج من هذه الحرب وحفظ ماء الوجه حتى أكلت هذه الحرب غالبية قواته، فساءت العلاقات بين السعودية واليمن حتى إن الطيران المصري شن هجمات داخل المملكة في جيزان وغيرها، وعندما هاجمته إسرائيل بجولة بسيطة لم تجد سلاحاً مصرياً تقاومه

وحدثت نكسة 1967م وأنا أعتبره فشلاً ذريعاً للعقلية العربية القومية المتطرفة، ومازلنا نتجرع نتائج وسلبيات هذه الأيديلوجيا البغيضة التي تهيمن على تفكيرنا منذ زمن طويل.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى:

قولهم: إن هذه الانتفاضة عبارة عن مناصرة لعمال النفط والمطالبة بتأميم النفط، فهذه أيضاً غير صحيحة لأن شركة آرامكو عدلت من أنظمتها قبل هذا الوقت بكثير عندما تزايدت عليها مطالبة العمال، ولأجل هذا وضعت نظاماً للعمال يعتبر نموذجياً مازالت تسير عليه إلى وقتنا الحاضر، ومازال هذا النظام أيضاً نموذجاً للشركات السعودية التي مازالت تتخبط في أنظمتها.

إذاً نستطيع أن نخرج بنتيجة من هذا كله بعدما اتضحت لنا الرؤية بأن هذه الشطحات ليس لها أساسٌ من الصحة.

وإذا أردنا أن نتأكد أكثر فما علينا إلا أن ندقق النظر بأعضاء الانتفاضة هل هم من ذلك النوع الذي يفكر هذا التفكير ؟ وأنا أعتقد أن الذين يمكن أن يلعبوا هذا الدور في بريدة ليسوا هؤلاء وإنما نوعية أخرى من المثقفين كانوا منهمكين في عملية التحديث التي قامت وانشغلوا بأمور جسام غالبيتها تعليمية وتنظيمية، وليسوا متفرغين للأعمال الصغيرة هذه، ولعلنا في هذه العجالة قد وضحنا بعض العوامل التاريخية والاجتماعية التي أدت إلى مواجهة هذه الانتفاضة والمعاملة الصارمة التي عوملوا بها، وأعتقد أيضاً أنني ساهمت برأيي

المتواضع و بحل السؤال الذي يدور دائماً ويواجهنا في المناطق الأخرى وهو : هل أنتم من بلاد الدين ؟ وهناك سؤالاً ورد إليَّ في بعض الردود السابقة على الحلقة الأخيرة حيث سأل قارئ وقال:لماذا كان العقال محرماً في بريدة؟

وسؤال آخر وردني في حلقة سابقة :ما هو السبب أن أهل الخبوب الغربية متدينون؟وإن كانوا متدينين فهذا تاج على رؤوسهم يحق لهم أن يفخروا به، وأتمنى عليكم أن تكتبوا لنا عن ثورة التدين التي حدثت ولعبت دوراً في تاريخ التدين في الأوقات المتأخرة مابين عام 1393هـ/1973م حتى عام 1400هـ/1980م، وكيف أن « محمد سرور» التي تنسب إليه «السرورية» لعب دوراً في ذلك. وأتمنى أن يكون أحد طلبته في المعهد العلمي ببريدة.

عندما جاء وافداً من سوريا وأصبح أحد المعلمين المهمين في ذلك المعهد، و يا ليت شيخنا الكبير «سلمان العودة» يكتب موضوعاً في صحيفتنا عن هذا الحدث، ولو أنني اعتقد أن الشيخ سلمان من طلبته المتأخرين، فإن هذا الموضوع سوف يُنير لنا الطريق ونعرف عن موجة التدين التي حصلت في ذلك الوقت، وكيف تكونت جماعة «المتطوعين» المحتسبين والنشيطين أيضاً الذين قاموا بمهام هيئة الأمر وأصبح لهم شأن عظيم في هذا البلد وخاصة في هذه الفترة. والتطورات اللاحقة وبعض الأحداث الميدانية والسياسية التي حدثت وتم منعهم نهائياً من التجوال وكف أيديهم حتى الآن.

هذه قراءة سريعة للحالة التاريخية والدينية والسياسية في هذه المدينة قبل انتفاضة المقهى، والتي ساعدت كثيراً في قراءاتنا للحدث والآن لابد أن نتطرق إلى الحالة الاجتماعية التي كانت مساعداً قوياً وهيأت المناخ المناسب لقيام تلك الحادثة ولكن لن نتعمق كثيراً في الزمان وسنكتفي بالحالة الزمكانية: أي السنوات القليلة التي سبقت هذا الحدث وخاصة الاجتماعية منها.

المجتمع القصيمي وخاصة البريدي الذي هو مجالنا الآن، كان مؤهَّلاً تأهيلاً مناسباً للدخول في أجواء الحالة الاقتصادية التي طرأت على الوطن إثر تدفق النفط ولديه التجارب القديمة والآليات التي تمكنه من خوض معركتين أو ثلاث في آن معاً، وهي الحالات التجارية و الاقتصادية والحالة الزراعية التي بدأت تنمو، وكذلك الأستعداد التام لدخول معركة التعليم النظامي ولو أن الجناح المحافظ فيه خاض في معارك التحريم لهذا التعليم ومع ذلك سارع بقوة إلى اجتياح هذا الجو الذي كان يعارضه سابقاً، حتى تعليم البنات ومواقفه المشهورة والمعروفة بالاعتراض، و سرعان مافتحت هذه المدارس بادر في ضم أبنائه بنين وبنات إليها في مدة زمنية قصيرة.

وبعد فتح المدارس الابتدائية فُتحت المعاهد والثانويات، وقد فَرَغَ هذا المجتمع أبناءه تفريغاً تاماً للدراسة، بعدما كانوا منهمكين في الأعمال الشاقة مع آبائهم، هذا الجو أو المناخ التعليمي أحدث نوعاً من الفراغ في فترة اليوم الكامل وأصبح هناك مجموعات شبابية بدأت تتجمع عند نواحي الطرقات ليلاً وخاصة من الفئات العمرية الشابة،

وأصبح لديهم نهم زائد في تلقي الثقافة العامة من بعض الصحف والجرائد والإذاعات التي يستمعون إليها، بالإضافة للطلبة صار هناك مجموعة أخرى شبابية اندمجت مع الطلبة وهم الموظفون الشبان الذين تخرجوا من المتوسطات والمعاهد العلمية وبعض الذين اكتفوا بالدراسة الابتدائية والتحقوا بالوظائف الحكومية وصارت كلا هاتين الفئتين متفاعلتين مع بعضهما في الأهداف والاتجاهات الثقافية فزادت متطلباتهم الشبابية، وحدثت تغيرات شكلية كما يحدث الآن لشبابنا بالتمام بالملابس والمظهر الخارجي كانوا يفضلون قصات الشعر الغريبة، وملابس ضيقة أنيقة ومصطلحات غريبة تختلف عن الجيل السابق لهم الذين يشبهون آباءهم، وأصبحوا يركبون الدراجات. ويدخنون السجائر الحديثة الجاهزة بدل طريقة اللف القديمة، ولبسوا الغتر المصبوغة بالنيل الأزرق، وقليلاً في الميوعة أثناء المشي على الأرض، يسيرون فرادى أو جماعات وهم يحملون في أيديهم بعض المجلات التي فيها صور الفنانين والفنانات، ويطمحون إلى الحرية مما أغضب الرعيل الأول من المجتمع المعتاد على الجدية والتقشف، والانهماك في البحث عن الرزق، ممتطين مساحيهم ومعاولهم، أو يقفون في الشمس الحارقة مشمرون عن سواعدهم في المزرعة أو في سوق العمل، وبما أن ثمرة العلم والمعرفة لم تنعكس بعد عليهم ولم يتم بعد الإيمان الكامل بالتعليم ونتائجه، أصبح هناك نوع من ردات الفعل الاجتماعي على هذا اللون من التصرفات التي يدعونها «بالبنّاتية» فكثير من الآباء يخجل من تصرفات ابنه بهذه الطريقة.

وأخيراً أصبح الوضع يحتاج إلى أماكن يجتمعون فيه ويتبادلون الأحاديث والحوارات ومناقشة الأوضاع على الساحة فأدى إلى ضرورة مقهى خاص بهم، ومن ثم تطورت المتطلبات لديهم مما أدى ذلك إلى شرب «الشيشة» التي أثارت الجناح المحافظ، وعندما نُفذ الإغلاق ثارت ثائرة الشباب، وصارت هي « القشة التي قصمت ظهر البعير».

المهم في هذا كله أن هذه الانتفاضة، هي إعلان صريح بالصوت العالي لقبول وسائل الحداثة دون أفكارها، لأن أفكار الحداثة الحقيقة لم تصل إلا في هذا الوقت الذي نحن فيه، وهذا العراك الحاصل بيننا الآن هو عراك بين المحافظ وبين أفكار الحداثة، دون وسائلها التي قبلها المجتمع سابقاً وصار الآن يمارسها بشراهة، ويستعملها استعمالاً جيداً، وأفكار الحداثة هي مانسمعه الآن كالليبرالية وأدواتها: الديمقراطية والحرية وقبول الآخر وحق المواطنة، والتبادل الثقافي وحرية العبادات وغيرها من أشكال الحداثة التي شرفتنا على حين غرة دون الاستعداد لها ودون معرفتها معرفة سليمة، مما جعل الوضع الآن وضعاً مزرياً وحرباً ساذجة «أضحكت علينا الأمم».

وأختم قراءتي قائلاً:هذا ما استطعت تقديمه من رؤية للوضع القائم في تلك الفترة، وأن بريدة ليست بريدة واحدة، وأنها مجموعة بريدات من الناحية الفكرية والثقافية، وأن هذا الوسط العجيب دائماً يغلي ويتفاعل وهذا ساعد كثيراً في ثورتنا الثقافية الآن والتي تتفاعل على المستوى الوطني والعربي، وبما أن الصوت المحافظ

هو الصوت الظاهر على السطح، وذلك لأسباب تطرقنا إليها في ثنايا الموضوع، وأن بقية الأفكار باقية تحت السطح ولم تظهر وتتوضح إلا في هذا الوقت الذي نعيشه، وتلك التسهيلات التي سُمح بها أخيراً، وذلك لضرورة تاريخية زمنية تحتاج إلى تلك الأصوات وثقافة العصر التي فرضها الوضع العالمي الجديد، وضرورة أن يبقى العالم «قرية واحدة» يؤثر ويتأثر، فبدأت تلك الأصوات النائمة تظهر على الملأ وتقول رأيها بحرية، فمرحباً بالتنوع والاختلاف إذا بقي تنوعاً واختلافاً ولكن أرجو أن لا يصل إلى مرحلة النزاع والفوضوية هذا ما أتمناه.





أعراس بريدة

لو عاد التاريخ والزمن إلى الوراء قليلاً لرأيتم كيف أن عادات وتقاليد كثيرة قد تغيرت وطواها الزمن والنسيان ولا يمكن إعادتها مرة ثانية وذلك بسبب تغيرات كثيرة طرأت على المجتمع البريدي وكل المجتمعات الأخرى، فالحالة الاقتصادية عندما تتبدل يتبدل معها كل شيء، حتى العادات والتقاليد والمفاهيم الثقافية والاجتماعية، وبخاصة إذا حدث رواج اقتصادي زادت معه الرفاهة وأصبحت المجتمعات تتأثر بالوسائل الحديثة التي اقتنتها مما ينعكس على كل الحياة الاجتماعية وينفتح الباب على مصراعيه للتغيّر والتبدّل.

فمن البيوت الطينية ذات الأسوار العالية إلى الفلل والدور المبنية بالأسمنت، ومن الطرقات الضيقة المتعرجة إلى الشوارع الفسيحة، ومن البيت العائلي الكبير الذي يحوي الجد والجدة والأبناء وزوجاتهم وأولادهم إلى ذلك البيت الصغير الذي يحوي الزوج والزوجة وأبناءهم العزاب فقط، ومن العائلة الكبيرة التي تتجمع على صحن واحد فقط نساءً ورجالاً، إلى عائلة صغيرة لا تكاد تجتمع ولا حتى على صحن واحد.

ومن اختلاط واضح بين الجنسين، ولا شيء في ذلك، إلى مجتمع «الحمو الموت» الذي اُختُلف في تفسيره، حتى صار سلاحاً بتاراً يهدم التواصل العائلي، إذ عندما يختلف الناس في تفاسير الأحاديث والحكمة تتحول هذه التعليمات الإلهية إلى معول هدم يهدم كل العلاقات الإنسانية التي تربط المجتمعات والأسر بعضها ببعض ويصبح بيت الأخ محرماً حتى على أخيه من أمه وأبيه، في حين أن المقصود من حديث نبينا العظيم هو عدم الابتذال الفاضح أمام الرجال والنساء حتى لو كانوا أقارب، والالتزام بالأدب والسلوك الحسن الذي يدعو إليه الإسلام.

من هذا الخطأ بالمفهوم تفرقت الأسر وزاد تحصين البيوت حتى صارت هذه البيوت حصوناً مغلقةً ذات أستار حديدية لا تدري ما يدور بداخلها، وصرنا مجتمعاً مغلقاً.

في الماضي الذي عشناه كانت العروس الجديدة تأتي إلى هذا البيت الكبير وتعيش وتتعايش مع الجميع رجالاً ونساءً وشباباً وشابات، وتصبح من سكان هذا البيت وتأخذ دورها في العمل بلا زيادة ولا نقصان: من حلب للبقر ثلاث مرات في اليوم تبدأ من آذان الفجر الأول وخض للحليب حتى يتحول إلى لبن يعتمد عليه الجميع في غذائهم إلى طبخ للوجبة الرئيسة وهي العشاء، وتطبخ مباشرة على الحطب، إلى صنأعة القرصان التي تتم على الحطب أيضاً، إلى تنظيف البيت إلى غسل للملابس ولجميع أفراد العائلة. .

كل هذه الأعمال الشاقة تنتظر العروس لتنضم إلى بقية المحاربات.

وعند دخول العروس إلى بيت زوجها تكون قد تعلمت كل هذه الدروس في بيت أهلها وتدربت عليها وإلا لن تنجح الزيجة ويحكم على هذا الزواج بالفشل وعند البحث عن زوجة تكون هذه الأسئلة بالمقدمة ولا يمكن التنازل عنها، لا وقت لديهم للتراخي والانبطاح والكسل، فالفتاة التي لا تتمتع بهذه المواصفات مكانها بيت والدها، ولن تجد من يطرق بابها، ويسمونها أحياناً «بايرة» أي ليس لها طلب بسبب كسلها وتراخيها وعدم مقدرتها على المشاركة، لذلك كان المجتمع لا يزوج البنات صغيراتٍ حتى يبلغن السن القانونية التي تؤهلهن للعمل داخل هذا البيت الكبير خوفاً من إعادتهن من حيث أتين، هذا الكلام كان بالأمس القريب وليس تاريخاً ماضياً وهو الزمن الذي تزوجنا فيه أيضاً.

كما أن مواصفات الشاب المقبل على الزواج لا تقل أهمية عن مواصفات العروس أيضاً فالأولوية للرجل القادر على الكسب المادي، الرجل الكادح الذي يستطيع أن يجلب الأرزاق إلى بيته ويكاد يكون هذا الشرط الوحيد وهذا هو السؤال الأهم الذي يحرص والد العروس على طرحه على الشاب، لا عروس للفتى العاطل عن العمل أو الانبطاحي الكسول، كثير النوم، وإن حاول أن يبحث عن عروس فسوف يرجع صفر اليدين.

الجمال أو القوام الحسن، أو المظهر الجيد لا يعني لهما شيئاً، سواء الزوج أو الزوجة، فلا يهم إن كان الشاب أعور أو أعرج أو به أية إعاقة، وكذلك الشابة فلا يهم إن كانت قبيحة المنظر، المهم أن يكون الشخص جندياً محارباً قادراً على مواجهة زمهرير الحياة، قابلاً للتحدي والصمود.

أجساد الناس رجالاً ونساء مستقيمة القوام، لا بروزات ولا بطون منتفخة ولا مؤخرات بارزة، جميعهم جنود صاعقة جاهزون للعراك مع الحياة الشرسة التي لا تمنح رزقها وخيراتها إلا للصقور الجارحة التي تستحق أن تعيش بكرامة وفروسية، والعمل مقدس، والكفاح واجب وشرف تمنحه الحياة لمن يستحق أن يعيشها، ولو عاد الزمن الذي نعرفه ونحن شباب وشاهد الناس على هذه الحالة في هذا الزمن الذي نعيشه الآن لغضب غضباً شديداً وسل سيفه وقتل جميع هذه الأجيال المترهلة ذات المقدمات والمؤخرات التي لا تنفع لشيء رجالاً ونساء، إنها أيام الأمهات المجاهدات اللاتي أدرن بيوتهن الكبيرة بكل جدارة فحقٌ علينا أن نذكر تلك الأيام التي رحلت أيام العزة والشرف والكرامة، ونذكر الأجيال التي لم تكن تنتظر المكرمات أو الهبات والعطايا.

تدور «بروتوكولات» الزواج في ذلك الزمن بين الرجال فقط دون تدخل النساء، فتدور مراسم الخطبة بين والد الشاب ووالد الشابة مباشرة وعند موافقة والد الشابة يكون قد تم كل شيء، ولا حاجة لمشاهدة الشابة لأن المواصفات قد تم السؤال عنها مسبقاً،

وتتركز حول وضع العائلة والعمل الذي يمارسه الشاب وهل بإمكان هذا العمل أن يأتي بخبزٍ يكفي الجميع؟ أما بقية الأسئلة فغير مهمة، وماذا يعني الجمالَ للفتاة إذا كانت «بايرة» ولا تصلح لشيء؟ وماذا تعني السمعة الحسنة للشاب إذا كان لا يعمل؟ هذه نظرة المجتمع البريدي للزواج، وهذا يرجع أيضاً إلى الثقافة التي تعلمها من الأجيال التي سبقته، المجتمع البريدي خاصة والقصيمي عامة يقدس العمل ويحث عليه، وقيمة الإنسان لديهم تقاس بمدى كفاحه، وجميع ثقافته وعاداته وتقاليده تنطلق من مفهوم العمل، لذلك لا يجب أن يستغرب أي إنسان يعيش بالمملكة من قوة الثرى ومستوى المعيشة التي يتمتعون به دون غيرهم منذ زمن الفاقة. والجميع يدرك جيداً قوة رجال «عقيل» هذه الطبقة البرجوازية التي انخرط بها غالبية أفراد المجتمع منذ زمن ليس بالبعيد، والتي غذت المجتمع بكثير من ثقافتها وقوة إيراداتها، حتى استطاع هؤلاء الأشاوس في يوم من الأيام أن يحكموا ويهيمنوا على أجزاء كثيرة من العراق وأخص منطقة البصرة والزبير وعموم منطقة الأنبار وتحتكر أسواق الماشية في كل من العراق والشام ومصر أما في نجد فإنها استطاعت أن تحدد من يحكمها، كل ثقافات المجتمع البريدي انطلقت من هذه القوة الكبيرة التي طوت المسافات الطويلة والأخطار العظيمة بحثاً عن الرزق والعزة والمجد والشرف، إذاً في زمننا الأول الذي عشناه وتزوجنا فيه؛ لا مكان للكسول والمترهل والانبطاحي أو الشحاذ، أومن يسعى إلى الهبات والهدايا، بل هناك مجتمع يشق الصخر للبحث عن وجبته.

نساء ورجال كلهم هكذا والنساء تسابق الرجال في العمل بل تتفوق عليهم في أحايين كثيرة، لذلك انطلقت ترتيبات الزواج وطريقة تنفيذه من هذا المنطق العظيم، أما الآن وفي هذين العقدين الأخيرين فقد تغيرت أمورٌ كثيرةٌ ووقعت تطورات خطيرة وأصبحنا لا نعرف من نحن، وصرنا نحملق بعيون الناس نبحث عنا وعن سحنتنا وعزيمتنا التي راحت أدراج الرياح، وكدنا نصرخ بأعلى الأصوات ونقول للمارة من هنا أين نحن؟ أين أجسادنا أين الرجال الذين يمشون على الأرض كما تمشي الأسود أين العمل؟ أين الصباح الباكر الذي يتصاعد فوقه غبار العمل ..؟

يتكون المهر الذي يُدفع للعروس من قسمين: مبلغ من المال يُدفعُ نقداً لا يتجاوز ستة آلاف ريال، وحزمة من الأغراض تتكون من قطعٍ من الأقمشة للعروس وعدد من العباءات واحدة منها للعروس والبقِية لوالدتها وعماتها وخالاتها بحسب العدد، و أيضاً هناك عدد من «المشالح» لوالدها وأعمامها وأخوالها، والشاب ملزمٌ بتكملتها على عدد هؤلاء وإذا نقصت العباءات أو «المشالح» عن العدد المطلوب، ورفض الشاب أو والده إكمالها فهناك احتمال كبير في إلغاء مشروع الزواج لأنه مؤشر واضح على البخل الذي يتمتع به الشاب وعائلته لذلك يخافون على ابنتهم أن تموت جوعاً في ذلك البيت، كما أن هناك عدداً من الأواني كقدور الطبخ الصغيرة والكبيرة وعدداً من الصحون أيضاً، كما أن هناك فراش الزواج ولا بد أن يحضر أيضاً مع بقية الأغراض، وهناك أيضاً مجموعة من قناني العطور، تحمل هذه الأغراض ليلاً عندما ينام الناس حتى لا تنفضح الحكاية، يحمل هذا

«الجهاز» على سيارة يستأجرونها لأجل ذلك إلى بيت العروس، وأحياناً تكون العروس لا تعلم عن الأمر شيئاً، وخوفاً من ردة فعلها إذا شاهدت هذه الأشياء فيبحثون عن عذر يجعلها تنام تلك الليلة عند أحد أقاربها كالعم أو الخال، ثم يبدأ التدرج في تلقينها الخبر.

في الليلة التالية وبعد تناول العشاء كلٌّ في بيته، يدعون الأقارب من رجال ونساء لتفقد المهر قطعة قطعة حتى المبلغ النقدي يُعرض أمامهم عداً ونقداً، ومن بين الأقارب من يحب إثارة الشغب ويحول هذه الليلة السعيدة إلى ليلة حزينة عندما يبدأ بتفقد الأغراض التي يسمونها «الجهاز» للبحث عن نقص أو عيوب محاولاً إثارة مشكلة ما، حتى الهدية التي تخصه بالإمكان تحقيرها والتقليل من أهميتها، فتبدأ المنازعات وترتفع الأصوات وتقذف الأيمان المغلظة كالقنابل والتهديد بالطلاق ثلاثاً بأنه لن يحضر الزواج، فتزداد التفرقة بعد التوافق والمحبة. أنها حياة بسيطة وساذجة تدل على عقلية ذلك الزمان غير المتعلمة، ومع ذلك سرعان ما ينقشع السحاب وتعود المياه إلى مجاريها. «وع – عبات جوخ – قامتيه – مشلح رهيف – من النوع الرخيص – الله لا يوفقه على هالجهاز – عائلة ردية – كنت عارفهم بس ماودي أغضب خاطركم – حتى قماشهم بفت – لاس – خام – شيفون – الخ». والكل يدعو أن تنتهي هذه الليلة على خير وبلا (زعل) من أحد.



ليلة العرس بكل تفاصيلها المثيرة

تطرقنا في الحلقة السابقة إلى ترتيبات الخطوبة وشروطها وجميع بروتوكولاتها.

وعن المهر وقيمته وأنواعه أما في هذه الحلقة فسوف نخصصها «لإدرامتيك» ليلة العرس وأحداثها في الزمن الذي وعيناه وعشنا أيامه الجميلة، وذكرياته التي حفرت في ذاكرتنا، على الأقل في مدينة بريدة ولن أتخطى حدود معرفتي إلى المناطق الأخرى في منطقة القصيم. ولأجل أن نقارن بين حاضرنا الذي نعيشه الآن وبين ذلك الزمن الوردي الذي رفض أن يغادر ذكرياتنا يمر أحياناً أمامنا مرورَ السهم وكأنه خيال أو أحلام سريعة، وتتركنا نحِنُّ إليه حنينَ الناقة إلى ولدها، طوانا زمن سريع غيَّرَنا كثيراً، ونقلنا من بساطة الحياة إلى تعقيدها ومتطلباتها التي تتزايد في كل دقيقة نعيشها، صحيح أننا نعيش رخاءً عاماً وحياة مرفهة. ولكن طرقات بريدة الضيقة والمتعرجة ورائحة زهور البرسيم الفواحة التي تنتشر مع نسيم الصباح، وقطعان الحمير التي تنقله مع شروق الشمس المخملية تجعل من الصعب نسيانه.

قبل ليلة العرس بأيام تبدأ حركة محمومة لإنجاز كثير من المهام التي تحتاجها تلك الليلة قبل أن يبادرهم الموعد على حين غرة، كل الأعمال تنجز مشياً على الأقدام وكثيراً ما تكون الأقدام حافية، قبل انتشار الأحذية بشكل واسع النطاق، لا سيارات مع الناس، كل السيارات الموجودة خاصةً بالأعمال والنقل مع عدد قليلٍ من سيارات الأجرة التي تستأجر جميعها لنقل العروس (الشابّ) ومرافقته إلى حفل الزواج.

ويجند جميع أفراد العائلة لدعوة الناس، ويؤكد على بعض العائلات التي لا تتمكن من الحضور بأن وجبتهم سوف تأتي إليهم في بيوتهم، ينقلها الصغار والفتيات حتى وإن كانت بأطراف المدينة، والشعار الذي يقال لهم (لا تسوون) أي لا تطبخون طعامكم فإنه سوف يصل إليكم. ونحن نعرف أن وجبة العرس تقام بعد ليلة العرس بيوم واحد، ووقتها بعد صلاة العصر. أما ليلة العرس لا يقدم فيها سوى الشاي والقهوة والبخور ثم يغادر المدعوون بيت العروس(الفتاة) إلى عصر اليوم التالي حيث المناسبة الكبرى.

الخطوة الثانية : وهي الاستعانة ما أمكن ببعض الوسائل المساعدة من الجيران والأقارب، مثل الأباريق، والدلال، والفوانيس التي تضيء على الكيروسين، وبعض السجاد والمباخر وكلها تستعار حتى تنتهي المناسبات.

ثم تعاد إليهم فيما بعد، كما تستعار بعض أواني الطبخ

الكبيرة، وعدد كافٍ من الصحون والأواني الصغيرة لنقل ما تبقى من أطعمة إلى البيوت المجاورة هذا إن بقي شيء من الوليمة، وعادةً لا يتبقى شيء أبداً، أما النسوة فينشغلن في خياطة ملابسهن يدوياً وملابس العروس وبقية الأولاد، حيث كانت النساء هن من يقمن بخياطة ثيابهن لعدم وجود خياطات نسائية ولا حتى رجالية.

كنت أتذكر خياطاً واحداً فقط من الأهالي وكان بارعاً جداً في خياطة الملابس الرجالية له محل يقع في «قبة رشيد» وكان هذا الخياط البارع يخيط ملابس كبار الموظفين ورجال الأعمال وعلية القوم، أما الناس العاديون فليس لهم إلا أيدي زوجاتهم.

كان يستغرق لخياطة الثوب يدوياً من ثلاثة إلى أربعة أيام.

أما ثوبي الجديد فإن والدتي هي من يخيطه لي وأفتخر به لأنه صناعة وطنية خالصة بلا شوائب «وطني العزيز وما أحب سواه».

عادةً ما يستأجرون عدداً من السيارات لنقل العروس الشاب (العريس) ومدعويه إلى الزفاف ويفضلون السيارات التي لها صناديق لحمل أكبر عدد ممكن من المدعوين.

بعد صلاة العشاء يتهيئون مع العروس الشاب (العريس) لركوب السيارات والذهاب إلى مقر الاحتفال وهو بيت العروس، يحمل العروس الشاب (العريس) معه الهدايا التي يقدمها لعروسه ووالدتها.

«الصباحة» وهي هدية العروس الصباحية، وهي تاج ذهبي يتدلى منه بشكل دائري عدد من الجنيهات الذهبية، ويشبه إلى حد ما تاج ملكة بريطانيا «اليزابث» والفارق البسيط بينهما أن «الهامة» وهو الاسم المتعارف عليه عند الناس يكون مبطوحاً يغطي الرأس جميعاً. انتهى هذا النوع ولم نعد نشاهده على النساء مع أنه من التيجان الراقية جداً والغالية الثمن وهو صناعة محلية، والهدية الأخرى التي يحملها العروس الشاب (العريس) هدية أم العروس وهي مجموعة من الأساور الذهبية، كما أنه يحمل أيضاً هديتين متمايزتين جداً: جنيهين من الذهب يسمون الواحد منهما «النيرة» واحدة للمرأة «البياعة» التي « تبيع» الزوجة إلى زوجها، والبياعة امرأة تحترف هذه المهنة وتجيدها بمهارة، وتقوم بدور الطبيبة النفسية التي تؤهل الزوجة نفسياً لملاقاة زوجها، وتنتظر معها قدوم الزوج إلى غرفة «الروشن»، وخلال مدة الانتظار تلقي على العروس محاضرات نفسية للمحافظة على الهدوء العام، ومحاضرات جنسية تستمع إليها العروس بصمت وهي ترتجف من الموقف.

بنات الأجيال الماضية يختلفن جذرياً عن بنات الأجيال الحالية: فالتعليم والإعلام والاتصالات والاحتكاك كل ذلك جعل الفتاة تواجه الرجل وتتحدث معه بكل طلاقة في حين كانت الفتاة في السابق لا تتحدث أو تشاهد سوى أهلها فقط، فوجود رجل أجنبي تشاهده لأول مرة تجعل الموقف أشد رعباً، لذلك وُجدت المرأة «البياعة» التي تمارس هذه المهنة باحترافية كما أن للبياعة أدواراً أخرى سوف نمر عليها لاحقاً.

عند دخول العروس الشاب (العريس) إلى الروشن تستعد البياعة للمغادرة وقد أكملت مهمتها النفسية ثم تحصل على هديتها من الزوج وهو الجنيه أو النيرة، فتخرج وهي فرحة وسعيدة بهذه الهدية القيمة.

قبل أن يتهيأ الزوج لركوب السيارة التي سوف تنقله إلى عروسه يجب عليه أن يحتاط كثيراً لأمور تجري بالخفاء، وكمائن تنصب وأفخاخ تنسج حوله يقودها أصدقاؤه المقربون منه وبعض الشبان الذي يريدون التشفي به لمغادرته العزوبية وتركهم وحدهم على أرصفة الشوارع والطرقات.

إنه الوداع الأخير والهدية العنيفة التي يجازونه بها، وعليه أن يحتاط جيداً لأنها ربما تكون عنيفة جداً. ويتمثل هذا الانتقام بالعبث بشخصيته ونهب الغترة والمشلح، وربما تمزيق الثياب، وأحياناً تصل الأمور إلى العبث بالمناطق المحرمة من جسده، ولكن ربما يجد العريس من يدافع عنه ويحميه حتى ركوب السيارة، وأحياناً تدور رحى المعركة بين طرفي المعارضة والموالاة ولكن دائماً تسفر الأحداث عن خسائر طفيفة جداً، وكان كبار السن من المدعوين يعبرون عن غضبهم بعبارات غاضبة يطلقونها، لأن هذا النوع من المزاح لم يكن يعجبهم.

كانت هذه العادة سائرة في ذلك الوقت وكثير من الشباب من يمارسها مع صديقه عند الزواج ولكن ليس بهذا العنف الشديد الذي يحدث أحياناً.

تجربة وحظّ !

حاولت مرة أن أجرب حظي مع أحد أصدقائي وأودعه بعنف وانتقام خفيف وباعتبار أنه من أقربائي ولي حق الدخول إلى البيت فلم أنتظر مع بقية الأصدقاء حتى يخرج فسارعت لاقتحام البيت ومهاجمته في الداخل، ولكنني فوجئت بشخص آخر يهاجمني من الخلف ويسدد لي لكمات وركلات عنيفة، فضلت على أثرها الانسحاب والهروب لقوة الضربات، وعندما حاولت النظر إلى ذلك الشخص الذي هاجمني على حين غرة، عرفت أنها أخته الشابة فصرت أضحوكة بين أولئك الأصدقاء، بعدها أخذت درساً لن أنساه، ولم أعد أهاجم أحداً يوم عرسه.

لقد جاء الدور علي بعد ذلك في ليلة عرسي فأصبحت كرةً تتقاذفها الأقدام: فالكل يضرب والكل يمزق حتى وهب الله لي صديقاً عزيزاً قوي البنية تصدى للجميع وحماني حتى صعود السيارة وكانت الخسائر طفيفة ماعدا أنني فقدت الساعة «والطاقية» وكل الأزرار، وأوجاعاً هنا وهناك منتشرة بين أعضائي، وداع بعنف بريء ونية صادقة، ولكنها حارة جداً، تطليق العزوبية بثمن لابد أن يدفعه الشاب لأصدقائه العزاب.

حفلة العرس بالنسبة إلى الرجال تقتصر على شرب القهوة والشاي والبخور مع كلمات التهليل والتبريك ثم يغادرون.

أما بالنسبة للنساء فإن هناك حفلاً راقصاً، ويقتصر الأمر

على قريبات العروس وجيرانهن ومعارفهن دون قريبات الشاب.

في الزمن الذي وعيناه وأدركناه كانت النساء تأتي إلى الحفلة وهن يلبسن «الخلاخيل» بأرجلهن أما الصبايا الصغيرات فهن يلبسن البرابيش والخلخال هو عبارة عن حلقة معدنية تلبس بالساق يتدلى منا أقراص حديدية أو أجراس عندما تسير المرأة تكون لها جلجلة موسيقية كذلك البرابيش.

تأتي النساء وهن يلبسن هذا النوع من الحلي، ويستخدمنه في الرقص بحيث تعطي بمجموعها نوعاً من الصوت الموسيقي المتناغم مع بعضها بعضاً، وتتقن بعض النساء رقصة «الحندة» والصغيرات يتقن رقصة «البحة» وكل واحدة من هذه الرقصات لها طقوس معينة وحركات جسدية متوافقة ولا يمكن للشابات أن يتقن هذا النوع من الرقص الصعب بالتمام، فالكبيرات بالسن هن من يتقن ذلك جيداً. لأن حركات الأقدام وهي تدك الأرض دكاً لا بد أن تتوافق مع ميلان الجسد بقوة وهذه حركة صعبة جداً.

الحندة:

تشبه الحندة هذه رقصات النسوة الأفريقيات بالتمام، لأنها تحتاج إلى جسم رياضي مرن بحيث تتجاوب كل الأعضاء مع الصوت، وقد تلاشت هذه الرقصة العنيفة ولم نعد نسمع بها منذ دخول التسعينات من القرن المنصرم، وأعتقد أن «للخلاخيل» وظيفة أخرى مهمة غير الرقص وهي تنبيه المارة وخاصة بالليل: أن هناك

امرأة بالطري، لأن الطرقات قبل الكهرباء مظلمة جداً وضيقة، وتعتبر إنذاراً مبكراً للرجال من أجل عدم الاصطدام بالنساء.

يدخل الشابُّ على عروسه التي تنتظر قدومه مع بياعتها أو طبيبتها النفسية، «بالروشن» وهي غرفة منعزلة بأحد سطوح البيت.

تغادر البياعة الروشن بسرعة تاركة العروسين وحدهما، تغادر بعدما تستلم هديتها من الزوج وهو الجنيه الذهبي الآخر «النيرة» داعية للجميع بالتوفيق ولا تنتهي بعد مهمة البياعة بل ترافقها ليلة الرحيل إلى بيت الزوج مدة ثلاثة أيام تواصل فيها التأهيل والترويض النفسي لتقبل الحياة الجديدة والانسجام و العائلة الكبيرةَ التي تسكن معهم.

في الروشن تبدأ الحكاية.

تكون الزوجة في هذه اللحظات في حالة نفسية متوترة، وذلك لأنها سوف تبقى وحدها مع رجل تشاهده لأول مرة.

ثقافة الاقتحام هي أول الدروس التي يتلقاها الشاب من المحيطين به «اقتحم مباشرة وأثبت رجولتك» لا مجال للرومانسية، ولا مجال لتبادل الورد ولا حتى لتبادل القبلات ولا حتى لتبادل العبارات المهدئة، كلا الطرفين متحفز لنفسه؛ فالعروس لبست كل ما لديها من سراويل ضيقة لإعاقة الهجوم، حتى الأظافر تعتبر وسائل دفاعية مشروعة لصد الهجوم الشرس، تبدأ المعركة، ويبدأ معها الكر والفر

وتشتغل جميع الأسلحة، وأحياناً يرتفع صوت العروس لطلب النجدة، ويوجد على الدرج حراسة مشددة من والدتها وأخواتها حتى لا تندس إحدى الفضوليات لتسترق السمع وترصد الأحداث من خلف الأبواب المغلقة.

وأحياناً تصل الأمور إلى حد استعمال صورايخ «جراد» وهي الأظفار، فيتكبد الشاب بعض الجراح في وجهه من شدة المعركة، بعض حديثي الزواج يختفي عن الأنظار حتى تشفى جراحه، وفي نهاية المعركة وبعد تدمير البنية التحتية للخصم تغادر العروس الروشن إلى والدتها التي تنتظرها خارجاً. لتنظيم الترتيبات من جديد وترميم ما أفسده الدهر. في هذه الأثناء يستأذن أحد أقرباء العروس للدخول لتقديم القهوة والشاي للشاب، حيث يحصل على الجنيه الثاني منه، وغالباً ما يحتدم الصراع بين أقارب العروس على من له الحق في تقديم القهوة للزوج، وفي النهاية يحسم الصراع لصالح أحدهم حيث يفوز بالجنيه.

لم تنته ليلة العرس بعد، حيث يأتي دور شبان الحارة الذين ينتظرون هذه اللحظة ليجتمعوا حول الناقة التي سوف تذبح مع أذان الفجر الأول، لتقديم لحمها على مائدة الدعوة التي سوف تقام بعد صلاة العصر من غدٍ، فيسهرون الليل كله بانتظار ذبح الناقة حتى يحصلوا على قطعة صغيرة من الكبد، ولا نستغربْ هذا الكلام الآن لوجود الرخاء الذي نعيش، فغالبية المجتمع في السبعينات الهجرية وبداية الثمانينات من القرن المنصرم لا يحصلون على اللحم إلا من

العيد إلى العيد المقبل حيث الأضاحي. فقطعة من الكبدة تعتبر وجبة مليئة بالبروتينات التي يحتاجها الناس في ذلك الوقت، ولا يمكن لأي شخص الآن أن يدرك معنى ما أقوله إلا أولئك الأشخاص الذين عاشوا تلك الأيام الغابرة؛ أيام الجوع، و المرض والعوز، فقد كنا أفقر مجتمع بالعالم في السبعينات الهجرية وما قبلها، ولكننا شهدنا قفزات الرخاء المتتالية التي غيرت المجتمع تغييراً واضحاً، نعم قطعة من الكبد ينتظرها شباب الحارة ويسهرون لأجلها، وأحياناً تحدث اشتباكات مع أفراد متسللين من حارة أخرى.

في ساعات الصباح الأولى تدب الحركة في بيت العروس، فالاستعدادات على قدم وساق لطبخ الوليمة، فتنصب القدور الكبيرة، قدور اللحوم، وقدور الجريش، وقدور الأرز، ويشعل تحتها الحطب، وكل هذا العمل تتولاه النساء دون الرجال، أما الشابات فيعملن مساعداتٍ.

وأحياناً يكون بيت العروس ضيقاً، فتطبخ الوليمة بأقرب ساحة من البيت أو في حوش الجيران، وتستمر عملية الطبخ حتى بداية وقت العصر.

في الموعد المحدد وبعد ساعة من دخول وقت العصر يكون جميع المدعوين قد حضروا، ويكون الزوج ومدعووه آخر من حضر، فتقوم النساء بتجهيز الوليمة التي تتكون من الجريش الذي يشكل ثلاثة أرباع المائدة ويغطى بطبقة رقيقة من الأرز مادةً تجميليةً فقط، لأن الأرز في ذلك الوقت لا يعتبر مادة أساسية مثل المرقوق أو المطازير

أو الجريش، وإنما يقدم باعتباره مادة تكميلية فقط.

ويكون اللحم وأقراص البر فوق الطعام، عندها يتقدم كبار الضيوف والذين هم بمعية الزوج، والشخصيات المهمة.

وتعتبر هذه «القلطة» الأولى بعدها تبدأ القلطة الثانية لمن بقي من الرجال، ثم القلطة الثالثة لأطفال الحي، والمرتزقة، والضعفاء والذين انقطعت بهم السبل والمنسيين، والمتروكين، والمقذوفين، و المتخلفين عقلياً وما أكثرهم في ذلك الزمان، وهؤلاء لا ينتهون فقط بالاكتفاء من الأكل وإنما يملؤون جيوبهم وحجورهم وكل مكان فارغ في الجسد، وأحياناً يكون الطعام غير كاف لهؤلاء فتغلق الأبواب بوجوههم ولا يتمكنون من الدخول، فيقدمون على رد اعتبارهم ويصرخون أمام البيت بالأناشيد الهجائية لصاحب الدعوة حتى يتعلم درساً في المستقبل، ومن أناشيدهم:

هذا عرس ما نذوقه ... ... زغل الشيطان فوقه

أما بالنسبة إلى النساء فإن الحضور النسائي يكتفي بأهل البيت وأقاربهم وجيرانهم فقط دون حضور أهل الزوج وقريباته، وتبقى العروس في بيت أهلها مدة أسبوع أو أسبوعين، ويبقى الزوج يزورها مرتين في اليوم: واحدة في فترة القيلولة والأخرى ليلاً حتى يأتي موعد ليلة الرحيل والذي سوف نخصص لها حلقة أخرى قادمة إن شاء الله.

هذه ذكرياتنا الجميلة التي نعيش معها الآن في أحلامنا الليلية وكأنها البارحة كل حدث ماض يمر نتذكره جيداً: بيوت الطين، والطرقات الضيقة والمظلمة، والأتربة التي تغطي الشوارع، واللغة والمصطلحات الجميلة التي راحت ولم نعد نسمعها الآن، بريدة كانت تغط في نوم عميق ليلاً وتنهض مع بوادر الفجر لتعمل .... كلها ذكريات غادرت ولم تعد.





Twitter: @ketab_n

رمضان زمان

كنت بصحبة والدي ذات يوم من أيام 1377 هـ/1957م نسير بمحاذاة موقع الاتصالات حالياً متجهين شرقاً ناحية شارع الخبيب وعندما وصلنا إلى الطريق النافذ شمالاً إلى شارع العزيزية، توقف والدي رحمه الله وأشار بيده إلى بيت يبعد مئتي مترٍ من موقفنا، كان بيتاً كبيراً جداً يقع على هذا المنفذ تقريباً مقابل مدرسةً العزيزية.

كان بيتاً يقبع وحده في الصحراء بعيداً عن مشارف المدينة ويبعد عن الجردة إلى الشمال بنحو ثلاثمائة مترٍ تقريباً. قال والدي:

انظر إلى هذا المجنون زوج بنت عمي أين بنى بيته ؟

لم أدرك حينها ماذا يقصد وبعد حين عرفت أنه وضع بنت عمي في بيتٍ بعيدٍ جداً عن المدينة. وبعد ثلاثة عقودٍ تقريباً بنيت بيتي في شمال بريدة وكان يقبع وحده بالمكان دون جيران. قال خالي لوالدي (أن ولدك بنى بيتاً في وادي أبو رجم) وهذا البيت يقع قريباً من مدينة الملك عبد الله بحي الآمن. قال والدي: (غداً سوف تطردهم الذئاب ويعودون إلى دارهم) نظرت إلى والدي نظرة عتاب وذكرته بما قاله بالزمن الماضي. نظر إلي وحاول أن يقتنع ولكن مخيلته لا تقبل السرعة

العمرانية ولا تستوعب الحدث.

كل شيء في بريدة تغير وتغيرت معه كل الرمضانات التي كنا نعرفها من رمضان الشح والبساطة إلى رمضان البذخ والتبذير ، من كلٍ حسب حاجته فقط إلى كلٍ يأخذ أكثر من حاجته، من رمضان الهدوء والسكينة إلى رمضان الصراخ والمفاخرة.

قبل أن أتكلم عن رمضان السبعينات والثمانينات من القرن المنصرم سأتكلم عن إشكالية رؤية الهلال وإشكالية إعلانه على الناس والقرى المجاورة والبعيدة عن بريدة.

في زمن حكومة حسن المهنا أبا الخيل الذي يبدو أن له رؤيا دينية وفتوى خاصة برؤية الهلال ، كان هذا الحاكم يختلف دائماً مع مفتي المدينة حول رؤية الهلال الشيخ « ابن مقبل ».فيعلن على الناس فتوى للأمير بأن يصوموا هذا اليوم أو لا يصوموا وفتوى أخرى من المفتي تخالف ما أفتى به الأمير ، فتجد نصف المدينة صائماً أو مفطراً لدخول العيد والنصف الآخر مفطراً أو صائماً اعتماداً على فتوى الشيخ، ولا حرج في ذلك، فتعدد الفتوى بالمدينة الواحدة مقبول عند الناس قبل قرن أو قرنين من هذا الزمن ولا أحد يكفر الآخر ولا يغضب منه، هذا الكلام صدر بتواريخ المؤلفين عن مدينة بريدة أما في الزمن الذي وعيناه فكانت الفتوى موحدةً بكل أجزاء المملكة لوجود وسيلة الاتصالات الوحيدة البرقية.. هذا في المدن الكبيرة التي يتوفر بها هذا الجهاز، أما القرى ومناطق القبائل الرعوية فإن أمير المنطقة

هو الذي يتكفل بإعلامهم بأمر من الحكومة، فيقوم الأمير باستئجار كل السيارات الموجودة بالمدينة وإرسالها إلى تلك المناطق للإعلام عن دخول شهر رمضان أو العيد وهكذا، والإشكالية تقع في المناطق الرعوية حيث يقوم أمير أو شيخ القبيلة بإشعال نار كبيرة جداً ليراها أولئك الرعاة المنتشرون هنا وهناك، فتتواصل النيران التي يشعلونها على قمم المرتفعات إشارة لدخول الشهر، أتذكر في يوم من الأيام أننا لم نعلم بالعيد إلا في الساعة العاشرة صباحاً، وذلك بسبب عطل ميكانيكي في جهاز البرقية، علماً أن الخبر سمعه كثيرٌ من الناس في الإذاعة الرسمية حين ذاك، ولكن لم يستوعبوا بعد الأخبار التي تأتي عن طريق الإذاعة ولا يثقون بها ولا حتى بالأشخاص الذين يملكون جهاز الراديو، فالثقة بهم دائماً أمامها علامة استفهام حتى أنني أذكر أن شخصاً تجرأ على إعلان الخبر الذي سمعه بالراديو بعد صلاة العشاء ولكن الإمام طرده من المسجد.

كان من يقتني مذياعاً من الأشخاص المتعلمين أو رجالات عقيل الأوائل أو من عمال النفط الذين عادوا ومارسوا الانفتاح بالمنطقة الشرقية؛ يخفيه بأقصى غرفة داخل البيت حتى لا يُسمع صوته، فكيف إذا جاء الخبر عن طريق هذا الجهاز المخزي بوجهة نظرهم.

والخبر الأكيد عندما يسمع الناس صوت المدافع المرعبة وهي تزلزل أركان المدينة، كان الشباب بذلك الوقت يجتمعون بعد صلاة المغرب بالجردة حيث تربض المدافع هناك وبالتحديد في ساحة قصر بريدة مقابل عمارة موسى الحمد حالياً الشمالية، هذه المدافع

قديمة جداً كسبها جيش بريدة من جيش الأتراك في موقعة البكرية عام 1324هـ/1906م ولا يفطر الناس بعد غياب الشمس حتى يسمعوا صوت المؤذن «البشري» الذي يغطي أرجاء بريدة كلها، منطلقاً من المسجد الذي سمي أخيراً جامع الملك فهد، والذي مازال يرن في أذني حتى الآن؛ إنه صوت مميز ورائحة مميزة من روائح بريدة العتيقة، تشم في هذا الصوت رائحة الطين والنخيل والجو العليل وصبا نجد التي ذهبت أدراجَ الرياح.

كل شيء عادي في رمضان ولا تشعر أن هناك شيئاً تغير؛ الناس ينهضون إلى أعمالهم في ساعة مبكرة من النهار، والتلاميذ أيضاً يذهبون إلى مدارسهم كالعادة في أثناء شروق الشمس لا أحد في فراشه حتى العجائز من الرجال والنساء يخرجون إلى مجالسهم المعتادة، وتُزيد العمالة من عملها لمواجهة مصروف العيد، العمل يتضاعف نهاراً، والأسواق تفتح في وقت مبكر وتزداد حركة البيع والشراء، والخبازون يضاعفون الأرغفة ويحملونها بعد العصر إلى سوق الجردة يحملونها بواسطة صناديق الدخان الكبيرة (التتن) ويبيعونها بأسعار مخفضة بالمقارنة بأسعار الصباح.

في المساء يسحب الرجال أنفسهم إلى بيوتهم بعد الإعياء والعمل الشاق ويشعرون جيداً بحلاوة الإفطار والصيام، وإن أردتم - وأخاطب الأجيال الصاعدة المرفهة- أن تشاهدوا بقايا هؤلاء المجاهدين فاذهبوا إلى الجردة بعد الظهر وحرارة الشمس على أعلى معدل لها وشاهدوهم يبيعون ويشترون تحت لهيب الشمس وهم

صائمون، حاولوا أن تجربوا ولو يوماً واحداً هذا العمل ولكن بعد إشعار الهلال الأحمر وكل الإسعافات لحمل جثثكم إلى ثلاجة المستشفى.

كل التغيرات التي تحدث هي في العشر الأخير من رمضان، حيث يستعد الشباب لممارسة السهر ليلاً، يقضون ليلة ترفيهية يجوبون فيها أحياء المدينة حتى وقت السحور، ويسيرون على أقدامهم الحافية بين طرقات الأحياء الضيقة والمتعرجة والمظلمة ليلاً، طرقات طويلة بعضها لا يتجاوز عرضه المتر الواحد أو المترين. يتقاطع بعضها ببعض وتتشابه أحياناً بحيث ترى نفسك وكأنك تائهٌ في عُمق نفق لا ينتهي إلى شيء، حتى يداك عندما تنظر إليهما فإنك لن تراهما من شدة الظلام، والأسوار المرتفعة جداً التي تغلق عنك منظر السماء، وحكايات الجن والعفاريت التي تسعى بتلك الشوارع المخيفة والصمت المستديم والهدوء الذي يُفجر الرعب في قلبك، في بريدة القديمة لا أحد يجرؤ على اختراق الصمت والظلام إلا شخص قُد قلبه من صخر.

بعد صلاة العشاء يغط الناس في نوم عميق نتيجة الكفاح المرير نهاراً على لقمة الخبز الصغيرة، يرسم لك الظلام الدامس أشكالاً عجيبة وأجساداً، كأنها تطير بالهواء، تخلع قلبك حيث أنك تعود بعدها وأنت غير متأكد أن عقلك قد نقص قليلاً، تدخل نفقاً بعد نفق بلا نهاية مبشرة، أو ثقب تراه في نهاية النفق تسعى إليه لعله ينجيك من ظلمات القبر الذي وجدت نفسك فيه؛ إن دخلت غمار الظلام، لأنك حينها ستكون مفقوداً عقلياً وإن خرجت فأنت مولودٌ بعقل ناقص.

حكاية السعلوة التي تدخل ليلاً من البوابة الغربية عاشقة لحوم الأطفال هي أول ما يتبادر إلى ذهنك وأنت تخوض غمار المجهول، فيصورها لك الظلام وكأنها أمامك فاتحة فمها تريد ابتلاعك، من تاه من الصغار في الليل فإنه بالتأكيد سيرجع إليك ولكن بقلب وعقل طائر بالهواء.

حتى وإن فتح مشروع الكهرباء فإنه غير كاف بالكاد يضيء دهاليز البيوت المعتمة ولكن إلى صلاة العشاء وبعدها تُغلق الأضواء وتؤصد الأبواب.

تبدأ مسيرة الشباب الترفيهية هادئة وجميلة ولكنها سرعان ما تتغير أثناء الدخول إلى عمق الظلام يتحول الحوار الذي يدور بينهم بسرعة إلى حوار الجن والعفاريت، يبدأ به الخبيث والماكر منهم لكشف قوة الصمود وكسر حاجز الخوف عند بعض رفاقه فيتعكر المزاج عند بعضهم الآخر فلا هو قادرٌ على الرجوع، ولا على الهروب إلى الأمام، فيصبح هذا الجبان مثار سخرية الجميع. يبدؤون بسرد قصة (ثور سوق البرسيم) أو (ثور سوق العلف) هذا الثور الأسطوري التي تتكلم عنه روايات الناس بأنه يصول ويجول بالليل بين سوق البرسيم المجاور لقيصيرية الذهب وبين (قبة رشيد) ويلاحق أي شخص يعبر من هذا الطريق ويفتك به، هذه الحكاية أخذت عقوداً من الزمن والناس يسردونها على بعضهم بعضاً، ولكن بلا أدلة دامغة، أو معرفة من فتك به كثير من السذج يدعي أنه رآه، وكثير من السذج أيضاً يصدقون هذا الكلام ونحن ندرك تماماً أن الظلام الدامس دائماً ما يرسم

أشباحاً وهمية وبخاصة للشخص الخائف، هذا الثور الأسود المخيف الذي يتجول بين قبة رشيد وسوق العلف كشف لنا قوة الخوف عند بعض الأشخاص حتى عند بعض من نحسبهم أقوياء جسورين، فأحد المعلمين عندما كنت في المرحلة المتوسطة سرد لنا بالفصل قصته مع هذا الغول حيث ذكر لنا أنه في يوم من الأيام عبر هذا الطريق بعد صلاة العشاء وبينما هو يسير بهذا الطريق سمع ضجةً خلفه ثم التفت وإذا بالثور يتبعه، قال: فهربت وتبادر إلى ذهني الأذان حسب القول إذا رأيت الغيلان فبادر بالأذان ، ولما انتهيت من الأذان وأنا أجري بسرعة وإذا بالغول قد اختفى ولم أعد أشاهده مرةً أخرى.

تذكرت أخيراً عندما كبرت أن هذا الأستاذ الطيب كان خائفاً وأن الظلام نسج له صورة غول خيالية. أنا لا أعتقد أنه يكذب لأنه معروف بصدقه ونواياه الطيبة ودينه الصادق، ولكن الخوف قاهر الرجال.

أسواق بريدة وحوانيتها كانت فيما مضى محروسة من رجالٍ متطوعين لذلك وأصحاب الدكاكين لا يبخلون عليهم أذكر منهم البقمي – سالم الحربي – وابن جلاجل. هؤلاء الرجال يقضون ليلهم في تفقد الأسواق والحوانيت وحراستها من اللصوص، يقتحمون الظلام بلا خوف وبكل أمانة ولهم صوت موحد يرفعونه لإخافة اللصوص وهي كلمة (صاحي) نسمع هذا الصوت ونحن في بيوتنا وأحياناً يستبدلون الصوت بصافرة تشبه صافرة حكم المباريات. يمرون دائماً مع سوق العلف وقبة رشيد ولم يذكروا للناس أنهم شاهدوا هذا الثور.

وهذا دليل واضح أن الجبان يتخيل أشياء كثيرة في لحظة الخوف عندما تحتدم الحكاية ويتغلغل مفعولها بين هؤلاء الشباب الذين يسيرون بالظلمات ويتمكن الخوف من بعضهم وتبدأ فرائصه بالارتعاد ولا يكاد يبلع ريقه، عندها يشعر أحد الخبثاء بذلك فيصرخ صرخة قوية هاتفاً (الثور - الثور - الثور خلفنا) فينطلق الجميع كالسهام لا يلوي أحدهم على الآخر والويل كل الويل لمن يصطدمون به وبخاصة في الظلام، وغالباً ما تقع حوادث مشابهة، تحدث لأولئك الشيوخ الذين يذهبون لصلاة القيام فإنه يقع تحت أقدام الهاربين، وفي نهاية المطاف والمسيرة الترفيهية التي قاموا بها ينحدرون إلى المساجد لشرب الشاي والقهوة مع الرجال الذين يؤدون صلاة القيام، فتُقدم القهوة بين الصلوات لإراحتهم بعض الوقت قبل استمرارهم في صلواتهم.

الحقاق:

في اليوم السابع والعشرين والثامن والعشرين والتاسع والعشرين يبدأ موسم الحقاق (وهي عبارة عن هدايا نقدية قليلة أو عينية بسيطة تقدم للأطفال ذكوراً وإناثاً) وهذه الأيام توزع بين ثلاث فئات من الصغار، اليوم السابع والعشرون مخصص لحقاق الزلوقين، وهم الكبار المعوقون عقلياً والفقراء والأيتام فقط، اليوم الثامن والعشرون مخصص لحقاق البنات الصغيرات، اليوم التاسع والعشرون مخصص للصغار من البنين، وهو طقس سنوي يقوم به الأطفال لجني وحصد أكبر قدر ممكن من الهدايا من الأقارب والجيران وأصدقاء الوالد وغيرهم من المعارف وغالباً ما تكون هذه الهدايا نقوداً ونادراً ما تكون قطعاً من الحلوى وهذا فرضٌ لابد منه يدفعه الشخص لهؤلاء الأطفال، حيث يقوم القادر من الرجال وغير القادر بالاستعداد لهذه الأيام ويحشون جيوبهم بالنقود الصغيرة مثل القرش والقرشين والأربعة قروش وأحياناً بالنقود الورقية.

ويدفعونها للصبيان حسب الأهمية أو القرابة وأبناء الأصدقاء يدفع لهم أكثر من غيرهم، الصغار يتجولون بالشوارع والطرقات والأسواق يبحثون عن معارفهم من الرجال، وأجمل يوم هو اليوم الثامن والعشرون (حقاق البنات) حيث تكتسي طرقات بريدة بألوان من تشكيلات الملابس المزركشة، وتتحول بريدة إلى منظر خلاب يأخذ العقل كأنك تسير في حديقة ورد هولندية وبخاصة إذا عرفنا أن العادة جرت على أن البنت لا تتحجب إلا في سن الحادية

عشرة وغالباً الثانية عشرة، إذا كانت الفتاة جميلة ليعرفها الخطاب ويستعدوا لخطبتها بعد تمام الثامنة عشرة وهو العمر السائد في بريدة في ذلك الوقت.

أما البنت العادية فإنها تتحجب في العاشرة تقريباً حتى ينسى الخطاب شكلها، لذلك كانت الطرقات في بريدة على مدار العام خليطاً من البنين والبنات يلعبون مع بعضهم بعضاً بغضّ الطرف عن الأعمار.

في نهاية اليوم التاسع والعشرين يجمع الأطفال ما كسبوه ويشترون به معلبات الفواكه اللذيذة يتناولونها بعد سماعهم مدفع العيد ولكن لا بد لهؤلاء الأطفال من منغصات أحياناً وهم يطوفون بالأحياء والأزقة، حيث يترصد لهم بعض اللصوص من الشباب ويسلبونهم ما جمعوه.

الشباب الكبار يستأجرون بيتاً هذه الليلة «ليلة العيد ». ويشتركون في مأدبة عشاء دسمة ويسهرون فيه حتى الصباح، ولكن أيضاً هناك منغصات أحياناً تحدث لهم، كما لو اكتشف رجال الهيئة (النواب) أن هذا البيت فيه (شلة) سوف يسهرون فيه ويتركون صلاة الفجر فلابد لهم من اقتحام البيت وطرد الشباب منه.

لا يمكن أن أنسى ذلك اليوم الحزين المضحك عام 1388هـ/1968م تقريباً، ففي تلك السنة التي افتتح فيها التلفزيون في بريدة، جلب أحد الأصدقاء معه جهاز تلفزيون أخفاه في كيس حتى

لا يراه أحد في أثناء سيرة في الطريق ففرحنا بذلك أنا و(الشلة) واكتملت الحكاية: تلفزيون، ودجاج حي نطبخه لأول مره ونذوق طعم الدجاج، كنا سعداء؛ بعضنا كان يرقص على أنغام سميرة توفيق التي ظهرت على شاشة التلفزيون وهي تغني (يا خيال الزرقاء يا ولد ...) وبعض الشباب كان يستعد لذبح وطبخ الدجاجات، كانت ليلة سعيدة لم تتم حيث تم الاقتحام من رجال الهيئة.

فانطلقنا مسرعين ناحية السطح لنتسلق جداره ونقفز منه إلى الطريق، صرخ بنا أحد الأصدقاء قائلاً :- توقفوا لم يتبعنا أحد نزلنا على الدرج ورجعنا نبحث عن دجاجاتنا التي هربت، ومع شدة الظلام لم نعثر عليها، ولكن باشرنا الديك بالأذان وهو فوق السور مع الدجاجات.

في صباح العيد يذهب الرجال إلى الصلاة في (زبرة العيد) والتي تقع جنوبي بريـدة قريبة من مقابـر (فلاجة) والنساء ينهمكن في تجهيز وجبة العيد.

بعد عودة الرجال من الصلاة، يتوجهون إلى الطريق الذي يسمى آنذاك المفرق وهو الشارع المخصص لاجتماع أهل الحي فيه حيث يأتي كل رجال الحارة حاملين صحونهم يأكلون مع بعضهم بعضاً،والأولوية للصحن الذي يوجد فيه لحومٌ، وعندما يأتون عليه يعودون إلى الصحون الأخرى التي لا تحتوي على لحوم.

هذه هي أيامنا أيها الجيل الصاعد، وهذا هو تراثنا

القديم الذي ذهب أدراج الرياح ودفنته رمال الصحراء وانقطعتم عنه وأصبحتم بلا تراث تذكرونه، وكأنكم خرجتم للتو من باطن الأرض لا تدرون كيف أتيتم ولا كيف نشأتم، ومن لم يحتفظ بتراثه فلا يمكن أن يعرف نفسه ويصبح غريباً في أرضه ووطنه لأنه فاقد الهوية والتراث.





مسافات في ذاكرة رجل من بريدة

هذا الكتاب المتواضع هو تجربة ومحاولة جديدة لرسم المنعطفات التاريخية الحرجة، التي مرّت على مجتمع مدينة بريدة، عاصمة منطقة القصيم. كتبتُها على شكل حلقات، منها ماهو تاريخي قديم، وماهو ذكرياتنا الجميلة التي مررنا بها منذ السبعينات الهجرية / الخمسينات الميلادية من القرن المنصرم حتى الآن، والهدف توفيرها لأي باحث يحاول دراسة هذا المجتمع القصيمي الذي يعيش في قلب الصحراء.

لا يوجد عندي دافع آخر إلى نشر هذه المقالات، ولا أعتقد أنّ شخصاً مثلي قد يكون متحمسًا لنشر أي شئ، في هذا الوقت الذي تداخلت فيه المفاهيم واختلطت، واشتبكت بشراسة، حتى صرنا في حالة من العماء، لاندري فيها أين الطريق الصحيح الذي يمكننا سلوكه.



ISBN 978-614-429-028-6

